ماذا وراء بوابة الموت ؟

د. مصطفى محمود

دار أخبار اليوم

قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

[ ] عدد فبراير ١٩٩٩ [ ]

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

رئيس التحرير :

نبيل أباظة

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٥٠٠	ليرة
الأردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٥	دينار
السعودية	١٢	ريالاً
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٢٥	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠	ريال
غزة	٢,٥٠	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الإمارات	١٢	درهماً
قطر	١٢	ريالا
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنكات
المانيا	١٠	ماركات
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنكات
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلنا
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٦٠ جنيها مصريا

● البريد الجوى ●

دول اتحاد البريد العربى ٢٩ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٤ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٩ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٩ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

● تلكس دولى : ٣٠٣٢١٠

● تلكس محلى : ٢٨٢

● قطاع الثقافة ٦ ش الصحافة

● تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

مـــاذا وراء
بوابة الموت

١

الســـاعة

أهل الكهف الذين لبثوا نياما فى كهفهم ثلاثمائة سنة قالوا حينما تيقظوا من رقدتهم للسائل الذى سأل: كم لبثتم.. قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم.. والذى أماته الله مائة عام ثم بعثه قال نفس الجواب: يوما أو بعض يوم .

﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ (الروم: ٥٥)

هكذا يحكى القرآن عن المجرمين وما قدروه للزمن الذى عاشوه فى الدنيا والذى لبثوه فى رقدة القبر.. إنه كان مجرد ساعة.

ويقول الله لرسوله عن الكافرين ناصحا له ومطمئنا:

﴿ ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار.. بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ (الأحقاف:٣٥)

إنها أيضا كانت بطولها وعرضها مجرد ساعة.

ثم يقول ـ وهو أصدق القائلين ـ بشكل عام ومجمل عن خلقه حين يبعثون: **﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون بينهم ﴾** (يونس: ٤٥)

والأمر فى البداية يبدو محيرا، فالذى لبث ثلاثمائة سنة يقول: إنها بعض يوم ، والذى لبث مائة سنة يقول نفس الشىء كأنه

لا فرق بين المائة والثلاثمائة.. والمجرم الذى عاش ثمانين عاما ثم مات يقول لحظة البعث إنها كانت ساعة والمجرم الذى عاش خمسين عاما فقط يقول لحظة البعث: إنها كانت ساعة، والمجرم الذى عاش تسعين عاما فقط يقول لحظة بعثه، ويقسم إنها كانت ساعة.. وقد استوى الذى مات شابا والذى مات شيخا فالأربعون كالتسعون كالثمانون.. استوت فى الوعى بأنها لا تزيد على ساعة.. وكذلك الثلاثمائة عام بالمائة عام.

ويقول الله ـ وهو أصدق القائلين ـ إن هذا هو الحال العام لكل البشرية لحظة بعثها.. إن آلاف السنين التى مضت وانقضت فى عصور تلو عصور وتعاقبت بين خلافات وحروب أو أوقات سلم ورخاء يتعارفون فيها بينهم كلها كانت مجرد ساعة.. أو هكذا بدت فى وعيهم الجديد.

وتتجلى الحيرة حين نعلم أن الوعى الجديد فى الآخرة هو شعور مختلف ووعى مختلف بالامتداد والأبدية.. بينما كانت الدنيا فى حياتهم الأولى مجرد زمن ومجرد ثوان تترى لا تأبيد فيها. وأى مقدار زمنى بالنسبة للأبدية هو كم مهمل.. كما نقول فى الحساب: إن أى رقم بالنسبة للانهاية هو صفر أو أقرب ما يكون إلى الصفر.. تستوى فى ذلك العشرة والعشرون والألف والمليون كلها مقادير تافهة ومهملة بالنسبة إلى اللانهاية.. فيقول شعورنا عنها: إنها كانت مجرد ساعة تقليلا لشأنها ويصادق الله على كلامنا، فيقول هى كذلك وكأنما يقول لنا الله معاتبا:

أما كان يجب أن تصبروا على تلك الساعة بحلوها ومرها وتتعاشروا بالمعروف بدلا من أن يقتل بعضكم بعضا على ثوان تافهة من السعادة وترتكبوا كل تلك المظالم وتحملوا كل تلك

الأوزار على زمن مخادع لا يساوى شيئا فى عمر الأبدية التى ستغدو الآن عذابا مؤبدا وبؤسا مقيما لا انقضاء له.

إنها النسبية القاتلة حينما تصبح قدرا، والملايين حينما تصبح صفرا، والعز حينما ينقلب ذلا، والكبر حينما يغدو صغارا، والغنى حينما يصير فقرا.. وإلى الأبد.. والآن يا سادة.. وقد علمتم أن الدنيا كلها كانت مجرد ساعة ، فهلا أدركتم ماذا تبقى فى حياتكم من دقائق فى تلك الساعة؟

وهلا عجلتم لتدارك أخطائكم وإصلاح شأنكم فى الثوانى الباقية من أعماركم (وما تبقى لا يزيد عن ثوان فى الحساب الحقيقى) ومن حسن الحظ إننا لا نزال جميعا أحياء نسعى ونروح ونغدو فى تلك الأيام والشهور والسنين التى هى أشبه بالوهم.. وأننا يمكن أن نتدارك الأمر ونفيق من الغفلة.

وما نقوله للفرد منا.. نقوله للأمم.. نقوله لإسرائيل ـ كمثال ـ التى تريد أن تعلو وتهيمن وتحكم بالمكر والظلم والقوة الأمريكية والقنابل الذرية.. لمدة ثلاث دقائق، أو بالحقيقة ثوان.. نعم هى ثلاث ثوان فى المقدار الباقى من الساعة، ومن عمر التاريخ الممتد فى الوهم والخيال والذى يبدو فى أعيننا كأنه دهر.

ومن حسن الحظ أن الكارثة لم تبدأ بعد وأنه يمكن تدارك الأمر بطرح الغرور وخلع رداء الكبر والاستعلاء والسعى إلى السلام بنية صادقة.

أقول هذا الكلام وأنا أعلم أنى أتمنى على الله الامانى.. وأن قضاء الله قد سبق، وقلم المشيئة قد كتب بشأن إسرائيل ما لا رجعة فيه، وأنها ستعلو وتفسد وتظلم، وأن الدمار نازل بها لا محالة وسوء الخاتمة لاحق بها لا مفر.

والله يقول لهم: ﴿ **إن أحسنتم أحسنتــم لأنفسكم وإن أسأتم فلها** ﴾.

وهو يعلم سبحانه أنهم سوف يسيئون.. يقول : ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم** ﴾.

إشارة إلى ما سوف يفعله المسلمون بدخولهم المسجد وبتدميرهم كل ما رفع اليهود من بناء وكل ما عمروا من هياكل.

ولأن الإسلام وقرآنه يقول هذا ويتنبأ لهم بهذا الشؤم. تحرك إسرائيل العالم وتؤلبه على الإسلام، وعلى المسلمين وتخطط من وراء الستار فى كل ما يجرى لإثارة الدنيا على الإسلام وأهله.

وآخر ما حدث فى هذا المسلسل كانت مؤامرة الموساد لنسف مقر الأمم المتحدة فى نيويورك التى كشفت التحقيقات تورط جماعات الضغط الصهيونى فيها ثم حاولت الحكومة الأمريكية التعمية على تلك التحقيقات.. وكان الأمل إلصاق التهمة بأى جهة إسلامية.. كالعادة.

ومن قبل ذلك كان اشتراك الموساد فى مؤامرة تفجير كنيسة سيدة النجاة فى لبنان لنفس الهدف.. لاتهام الأيدى الإسلامية.. ولإثارة الحرب الأهلية من جديد بين المسلمين والمسيحيين فى لبنان.

والمسلسل مستمر لتشويه وتلطيخ الإسلام وأهله بكل خسيس ودنىء من التهم، ولم يبق من الساعة إلا بضع ثوان تريدها إسرائيل لنفسهاعلوا واستكبارا فى الأرض وتطلب هذا العلو بأى ثمن.

ولن يجدى نصحى شيئا ولن يغير من قدر الله شيئا، ولن يمحو حرفا مما كتب الله لهم.. وأتذكر كلمات نوح لقومه من الكفار: ﴿ **ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم** ﴾ (هود: ٢٤)

وقوله لهم فى مكان آخر يائسا من إصلاحهم:

﴿يا قوم أرأيت إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾.

ذلك لأنه لا إكراه فى سنة الله على شىء ولو كـان على الخير، وأن التخيير هو الأسـاس فى كل عمل لأنه أساس التكليف والثواب والعقاب.

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

وقد خيـر الله الجمادات فعرض عليهـا الأمانة وأن تكون حرة مسئولة فى حركتها أو مسيرة بالقانون الإلهى:

﴿ إنا عـرضنا الأمـانة على السـموات والأرض والـجبـال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾.

ففضلت أن تكون مسيرة بقدر الله.

والإنسان وهو القمة فى المخلوقات أقبل على حمل تلك الأمانة فى رعونة وجـهالة، وأصبح مـخيـرا فيمـا يفعل من خيـر وشر.. والداخلون إلى الـجـحـيم سـوف يدخلونهـا بأرجلهـم وبعنادهم ورفضهم.. وقـد لعنت التوراة اليهود لصلفـهم وعنادهم ورقابهم المتصلبة، وقال فيهم الإنجيل ما هو أكثر .

وها نحن أولاء قد رأينا المسلمين يتنازلون ويوقعون ويبدأون بالسلام.. وأول من ذهب إلى الكنيست كان أنور السادات المسلم.. هو الذى مد يده بالسلام وهو منتصر وغالب.

ورأينا الطرف الإسرائيلى يقـدم رجلا ويؤخر أخرى، وسـمعنا رابين يقول: أصـافح بيد واليـد الأخرى على الزناد.. وسـمعناهم يترنمون بأناشيد الســلام، ويرجمون الجنوب اللبنانى بالصواريخ

ويحتلون المزيد من الأراضى ويبنون المزيد من المستوطنات فى نفس الوقت، ورأيناهم يطاردون العراق وكوريا الشمالية وإيران وباكستان بالاتهام بصناعة القنبلة الذرية.. وينكرون عليهم أى بحث فى إنتاج هذا السلاح، بينما هم يملكون مائتى رأس نووية جاهزة للاطلاق.. ولا يتحرك العالم للإنكار عليهم أو تفتيشهم أو مطالبتهم بحظر تلك الأسلحة المدمرة.

العالم كله يساندهم فى ظلمهم ويبرر لهم كل ما يفعلون بينما يضغط علينا للمزيد من التنازلات.

وإسرائيل تريد التطبيع فوريا وكاملا دون أن تتنازل عن شبر من الأرض، بل على العكس تحتل كل يوم المزيد من الأرض، وتبنى المزيد من المستوطنات، وتغير بطائراتها على أراضى الغير التى لا تملكها وتدكها بالقنابل وتقتل وتحرق الأرض والزرع على مشهد من العالم، وتطالب بالتطبيع وهى شاهرة سلاحها النووى فى وجه العرب.. وما هو بتطبيع بل تركيع.

إنها التاجر الجشع الذى يريد أن يقبض الثمن ولا يقدم فى مقابله شيئا، وهى الطاغية الذى يباشر القتل والطغيان ويرفض أن يحاسب على جرائمه.. وهى تنسى أن ملكها ودولتها لم يتبق منها إلا دقائق وربما ثوان فى الساعة الإلهية التى منحها الله للدنيا.. وعقرب الثوانى يدق ثانية بثانية ويقترب من الصفر.

ولكنها هى والعالم فى سكرة.

وهى تظن أن أمامها الدهر كله لتعلو وتحكم وتسود وما هو إلا الوهم ولا يزال كلام الله الذى قاله لموسى فى طور سيناء يرن فى أذن الأبدية:

﴿ إن الســاعة آتــية أكــاد أخــفيــهــا لتجـزى كل نفس بمــا تسعى ﴾

ولا يزال عقرب الدقائق يجرى منذ ذلك التاريخ وعقرب الثوانى يسرع إلى غايته وقد أوشك العد على النهاية.

فى منتصف العمر

وقفت أمام قبر الرســول الكريم منكس الرأس حياء وقد هربت منى الكلمات:

كلى حياء منك يا رسول الله..

أحسنت بالتبليغ عن ربك ومــا أحسنا.. وأحسنت النصح لأمتك وما نصــحنا.. وحملت كتابك بقــوة وما حملنا.. وانتــصرت للحق وما انتصــرنا.. واكتفى بعضنا بــلحيته وقال هى سنــتك.. وقصر البعض جلبابه وقال هو أمرك.. واســتسهلوا السهل وخانوا الأهل، واكتفوا من الدين بقشرته، ومن الجهــاد بسيرته.. وقعدوا وقعدنا معهم.. وركب أكتافنا الدون والسوقة ورعاع الناس وشذاذ الآفاق وسفحوا دماءنا واستباحوا أرضنا وشتتوا شملنا.

يا نصــير اليــتامى وجــاه الضعــفــاء والمنكسرين، لن أســألك الشفــاعة فلا توجــد فى عقــيدتنا شفــاعة، بمعــنى «الوساطة» فى الآخــرة لرفع الذنوب وإنمــا الشفــاعــة فى كتــابنا تعنى «العــمل» وشفــيع الإنسان عمله وحــده وكسبــه وما صنع وما قــدم.. وإنما أسأل الله بجــاهك أن يختم لنا بتــوبة وأن يرضى عنا، فقــد وعدنا ووعده الحق أننا سندخل المسجد كما دخلناه أول مرة، وسندمــر كل مارفــعت إسرائيل مــن بناء، وكل ما شــيدت من هياكــل.. فلا توبة لنا إلا بتــوبته، ولا رضا إلا برضــاه.. ولا مدخل إلى طاعــته إلا من بابك، ولا قربى إلا من رحابك.

ادع لنا ألا يطول علينا الليل وألا يدركنا الويل.

والسلام عليك يا محمد وصلوات الله عليك يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حيا.

والسلام على الكرام البررة، سادة البشر وأئمة الدنيا.. السلام على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى.. والنجوم الزواهر من صحابتك الذين عاشوا تحت ظلال السيوف، وادع لنا نحن جندك فى مصر الذين قلت عنا: أننا خير أجناد الأرض، وإننا فى رباط إلى أن تقوم الساعة.. أن نكون عند حسن ظنك.. وأن نكون مصداقا لنبوءتك وآية لرسالتك.

والسلام عليك إلى يوم يقوم الأشهاد.


ماذا وراء
بوابة الموت
٢


ماذا وراء
بوابة الموت

الكتب الصفراء التى تكتب عن عذاب القبر وتروى التفاصيل والمشاهد والحكايات عما يجرى داخل القبر وعن الملكين ناكر ونكير وما يقولان للميت وما يقوله الميت دفاعا عن نفسه وألوان العذاب التى يلقاها.. هى كتب كثيرة تملأ الأرصفة ويتهافت عليها الناس وأكثر ما فى هذه الكتب تخيلات.. والقضية غيبية لا علم لأحد بها والمرجع الوحيد فيها هو كلام القرآن وشهادة عالم الغيب والشهادة عن هذه الأسرار.

وما ورد في القرآن عن مصير المجرمين والجبارين واضح وقاطع.. فعذاب هؤلاء الجبارين لا ينتظر رقدتهم فى قبورهم ولا ينتظر انصراف آخر المعزين والمشيعين.. وإنما هو يلحق بهم فور موتهم وفور سقوط الواحد منهم فى مكتبه بالسكتة أو بالشيخوخة أو هبوط الدورة الدموية.. وقبل أن تكون هناك جنازة يصطف وراءها المشيعون ويهلل الأتباع والأشياع ويملأون الصحف بمقالات التمجيد.. قبل كل هذا.. وساعة الموت.. يفتح الستار عن المفاجأة وينكشف الغيب وتتوالى الأحداث.

ماذا يقول القرآن؟!

﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم.. أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون

بمـا كنتم تقـولون على اللـه غـيـر الحق وكنتـم عن آياته تستكبرون﴾ (الأنعام: الآية ٩٣)

.. اليوم.. إنها ساعة خروج النفس المجرمة من البدن ولحظة المـوت يتلقاها مـلائكة العذاب بـاسطى أيديهم.. بماذا؟؟ بالعـذاب الهون.. ونقرأ فى آية أخرى تفصيلا أكثر لهذا العذاب الهون:

﴿ولو ترى إذ يتـوفـى الذين كـفـروا المـلائكة يضـربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾ (الأنفال: الاية ٥٠)

ويتكرر نفس المعنى فى سورة محمد الآية ٢٧

﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم.. ذلك بانهم اتبـعوا مـا أسخـط الله وكرهوا رضـوانه فأحـبط أعمالهم ﴾

وإحـبـاط الأعـمال إشـارة إلى أنهـم كانـوا أصحـاب أعـمـال وإنجازات وأمجاد دنيوية.

إنه الضـرب على الوجـوه (والوجـوه هى رمـز التكريم) وعلى الأدبار وتلك غاية الإهانة.

ولا توجد إشـارة إلى أن الملائكة ينتظرون إعلان خبـر الموت فى الجرائد أو أنهم.. يتقاطرون وراء المشـيعين فى انتظار انتهاء مراسـيم الدفن وانصراف الأهل والأصحاب.. وإنمـا الضرب يأتى فور خروج النفس من البدن وهى صورة أشبه بالاستقبال الحافل لأصحاب الملايين عـند نزولهم من الطائرة.. ولكن على وجه آخر غير متوقع وغير مألوف.. فهى صحوة أشبه بالصدمة.

وهناك استـقبال فـورى من نوع آخر ينتظر الصـالحين.. وهو يحدث فـور تجاوز النفس حدود الحلقـوم وخروجها من الجـسد لحظة الحشرجة دون انتظار لجنازة أو تشييع أو دفن.

يقـول القـرآن عن لحظة الحـشـرجـة هذه: **﴿ فلولا إذا بلغت**

الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم (أى أقرب إلى الرجل الذى يحتضر) **ولكن لا تبصرون.. فلولا إن كنتم غيرمدينين ترجعونها إن كنتم صادقين.. فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم.. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾**

(الواقعة: الآيات ٨٢ ـ ٩١)

إنه استقبال بالورد والريحان والترحاب والسلام والتحيات

﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين ﴾

(الواقعة: الآية ٩٢ ـ ٩٣)

والجحيم هنا هو المنزل المعد ساعتها لنزول المكذبين الضالين.. أما الأتقياء الطيبون فلهم مصير آخر.

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ (النحل: الآية٣٢)

فإذا جئنا إلى قوم نوح فإنا نراهم يدخلون النار فور غرقهم دون سؤال ودون حساب.. والكلام هنا عن النفوس وليس الأجساد فالأجساد هلكت غرقا أو أكلها التماسيح.

﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ (نوح: الآية ٢٥)

النار أعقبت الغرق مباشرة.. فما فعله قوم نوح برسولهم على مدى ألف سنة إلا خمسين عاما هو عمر هذا النبى قضاها فى جدال يائس.. هى مسألة ليست فى حاجة إلى إعادة نظر كل هذا ولم تقم الساعة بعد ولم يحدث بعث ولا حشر ولا حساب.

وما نقوله هو كلام يتعلق بعذاب يلحق بالنفوس فور الموت

وانكشاف مستورات الغيب ومعرفة كل نفس بمقامها عند ربها وما ينتظرها من مصير فالأجساد هلكت وأصبحت ترابا.

وعذاب القبور ورد مرة واحدة عن فرعون وعصابته.. يقول ربنا في قرآنه: **﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** (غافر: الآية ٤٦)

وعذاب القبور هنا هو عذاب نفسى برزخى.. فهو عرض مستمر على النفوس الشاخصة في قبورها ارتقابا لمصير مشئوم وكابوس متواصل عن أهوال قادمة حينما تقوم الساعة.

أما الساعة والقيامة والبعث وعودة النفوس إلى التجسد (هذه المرة فى أجساد ملكية لا تفنى ولا تهلك) فهى مرحلة أخرى.. العذاب فيها أشد والنعيم فيها أعظم.. وهو أمر لا يحدث إلا عند نفخة الصور.

يقول القرآن:

﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون.. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ (يس: الآيات ٥١ ـ ٥٣)..

إنها الصحوة الثانية.. وكانت الصحوة الأولى هى خروج النفس من البدن لحظة الموت وماجرى فيها من مفاجآت.. أما هذه المرة فهى قيام وانتفاضة من رقدة القبر فى أعقاب صيحة هائلة.. فإذا بالنفوس قد عادت أجسادا ووقفت ترتجف فى ارتقاب يوم مهول.

﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون.. ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا

الصراط فأنى يبصرون﴾ (يس: الآية ٦٥ ـ ٦٦)

إنه حساب من نوع فريد تتكلم فيه الأيدى والأرجل وتشهد الجوارح على صاحبها بما كانت تفعل ويحاصر المذنب فلا يجد مخرجا..

أما الصراط فهو حدث غيبى آخر واختبار رهيب لا نعلم عنه شيئا، ثم يكون الحشر الأعظم واليوم المشهود الذى يُجمع له الناس ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾**
(هود: الآية ١٠٣)

حتى الوحوش يقول ربنا أنها تحشر **﴿وإذا الوحوش حشرت﴾** (التكوير: الآية ٥)

والله وحده يعلم كيف.. ولماذا.. وهل عليها حساب.. أم أنه استكمال لذروة الهيبة والجلال فى ذلك الموقف العظيم.

فالعذاب إذن عذابان والعقاب عقابان.. عذاب برزخى غيبى يبدأ من لحظة الموت وخروج النفس من الجسد وعذاب جسدى بعد نفخة الصور والقيامة والبعث وتجسد الأنفس من جديد فى ثوبها الأبدى الذى لا يبلى ولا يموت.. ويكون بعد الحساب ويستمر أبديا.. فالداخلون النار لا يخرجون منها **﴿وما هم بخارجين من النار﴾** (البقرة: الآية ١٦٧)

﴿هذا خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾
(الحج: الآيات ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١)

ومن الواضح أنه عذاب أشد من العذاب البرزخى للنفوس

ساعة الموت لأنه أكثر تشخصا ولأنه محسوس جسديا.

والخوض فى أى تفاصيل غيبية عن عالم ما بعد الموت خارجا عن نطاق القرآن هو فضول محذور فلا أحد يعلم عن هذا العالم المحجوب شيئا.

وأكثر الأحاديث التى تتكلم فى هذه الأشياء هى إسرائيليات وأحاديث موضوعة أو ضعيفة السند.

والمتفلسفون الذين يتساءلون.. كيف يعاقب الله عبيده على ذنوب محدودة فى الزمن بعقاب لا محدود فى الأبد.. ألا ينافى ذلك الرحمة الإلهية.. نقول لهم إن الذنوب مع الإصرار لا تعود ذنوبا محدودة بل تصبح ذنوبا متأصلة ملازمة لصاحبها لا ينفك عنها.

يقول القرآن عن المجرمين الذين سألوا الله أن يردهم إلى الدنيا ليعملوا صالحا

يقول ربنا **﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾** (الأنعام: الآية ٢٨)

وهذا علم إلهى بهذا الطراز من النفوس.. فهم أهل النار الذين هم أهلها.. وهم الجبارون فى الدنيا الذين كانوا يقتلون الأبرياء بالجملة والذين كانوا يقدمون خصومهم للسجون والمحارق وكانوا من أهل الإصرار حتى لحظة موتهم.

يقول ربنا عن الجبارين من أصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم أحياء: **﴿قتل أصحاب الأخدود.. النار ذات الوقود.. إذ هم عليها قعود.. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود.. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.. الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء**

شهيد.. إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ (البروج: الآيات ٣ ـ ١٠)

والمعنى أن رحمة الله ومغفرته كانت ستلحق بهم لو أنهم تابوا فى آخر لحظة قبل موتهم.

وباب التوبة مفتوح للجميع حتى ساعة الحشرجة.

ويستثنى الله من العذاب الذين تابوا وأصلحوا وبينوا أى بينوا برجوعهم وبأعمالهم فيقول:

﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ (البقرة: الآية ١٦٠)

والمعنى أن الله فتح باب رحمته ومغفرته حتى لهؤلاء الجبابرة رغم أفعالهم إلى ساعة الحشرجة.. ولكنهم لم يرجعوا ولم يستغفروا ولم يتوبوا

هؤلاء إذن هم أهل النار الذين هم أهلها.. فأى غرابة فى أن تعود النفوس النارية إلى النار.. وإبليس من الجن وهو مثلهم مخلوق من نار السموم والنار مكانه فى النهاية بحكم طبيعته.. وكل النفوس الإبليسية سوف تعود فى النهاية إلى مستقرها فى جهنم.. وليس فى هذا ما ينافي العدل بل هو منتهى العدل.. أن تنتهى كل نفس إلى مكانها.. وأن تعود النار إلى النار.

ولو تأمل الناس فى مصيرهم وفى حياتهم لآمن الكل، ولو تأملوا فى دنياهم ومباهجها الفانية ولذاتها المحدودة والموت والأمراض والمعاطب والأوجاع التى تحف بها لما غرقوا فيها ولما استسلموا لدنياها وتفاهاتها .

ولو تأملوا الموت لما تهالكوا على الحياة.

ولو ذكروا الآخرة لفروا فرارا إلى جناب ربهم.

ولكن لا أحـد يتـوقف ليـفكر.. الكل يـهرول فـى عجـلة ليلحق بشىء وهو لا يدرى أن ما يجـرى خلفه هو سراب ولا شـىء وأن الدقائق والساعات والأيام تجـرى.. وعمره يجرى.. وآخر المطاف مثواه التراب.. ولا أحد من الذين ذهبوا تحت التراب يعود ليحكى.. ونوافـذ القبور تـطل على العمـاء.. ولا أحد رأى شـيئـا.. ولا أحد يعرف شيئا.. وستار العـماء مسدل أمام الكل.. لا يرى الواحد منا إلا لحظته.

وفرصة كل منا حياته ولا توجد أمامه فرصة أخرى.

والله أعطانا العـقل والبصـيرة وأرسل إلينا الأنبـياء والرسل.. وحذرنا بالكوارث التى تتخطف الناس من حولنا كل لحظة.. ورأينا السلطان لا يدوم ورأينا النعيم يزول ورأينا الزهور تذبل والشمس تنكسف والأرض تـتـزلزل.. والمـوت يطارد كـل حى.. ورأينا أنه لا بقاء لشىء.. وأحاطت بنا النذر من كل جانب فلم يعد هناك عذر لأحد.

لكن البلاء ثقـيل والحجاب كثيف والأبصـار كليلة وصدق الله العظيم فيما يقوله عن الأغلبية من المنافقين:

﴿ إنا جـعلنـا فى أعناقـهم أغـلالا فـهـى إلى الأذقـان فـهم مـقـمـحون وجـعلنـا من بين أيديهم سـدا ومن خلفـهم سـدا فـاغشـيناهم فهم لا يبـصـرون وسواء عليـهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (يس : الآيات ٨ ـ ١٠)

إن الله لا يريد هذه الكثرة المنافقة فهى الكثرة التى سبق عليها القول بالطرد من رحمـته ولذلك جعل في أعناقهـا الأغلال وأسدل على أبصارها غشاوة.

ونسأل الله اللطف

ماذا وراء
بوابة الموت

٣

الإنسان .. مخير
أم مسير؟

التساؤل عن حرية الإنسان تساؤل لاينتهى .
ومازلت أجد من يستوقفنى فى الطريق ويسألنى.. هل الإنسان مخير أم مسير ؟
والذين يقرأون أكثر تساؤلا من الذين لا يقرأون .

والقضية أزلية ولا ينتهى الكلام فيها ولا ينتهى الفضول إلى كشف أسرارها لأنها مرتبطة بحقيقة الإنسان ولغز القدر .

وعمدة الحكم فى نظرى هو مايشعر به الإنسان فى أعماقه .

فتلك الشهادة التى تأتى من الأعماق هى برهان لا يعدله برهان وحجة لاتقف أمامها حجة .

والإنسان يشعر بالفعل فى أعماقه أنه يختار فى كل لحظة بين عدة بدائل وأنه ينتقى ويرجح ويفاضل ويوازن ويتخير .. وهو يحاسب نفسه ويحاسب الآخرين .. ويفرح إذا أصاب ويندم إذا أخطأ .. وكلها شواهد على أننا نتصرف انطلاقا من بداهة مؤكدة بأننا أحرار مسئولون .

ونحن نرى يد السجان تمتد إلى سجينه فيضطهده فى لقمته ويضربه ويعذبه ويعلقه من قدميه ويقهره على ما لم يرتكب ولكن هل نراه يستطيع مهما استخدم من وسائل الإرهاب أن يجعل هذا السجين يحبه من قلبه قهرا ؟

لا ..

هنا تقف كل وسائل الإكـراه عاجزة وسوف يظل هذا السـجين حتى المـوت حرا فيما يحب ويـكره .. حرا فيما ينـوى ويضمر .. لايستطيع أحد أن يقتحم عليه غرفة ضميره .

حتى الشيطان لا يستطيع أن يـدخل قلبك إلا إذا فتحت له الباب وصـادف إغـراؤه هوى قلبك ولكنه لن يـستـطيع أن يحـملك على ماتكره مهما بلغت وسائله .

وذلك شاهد آخـر على أن الله أعتق القلب ، واعتق الضمـير من كل وسائل الضغط والإكراه .

الاختـيار إذن حقـيقة .. وحـرية القلب حقـيقة .. وحـرية النية حقيقة .

والسؤال هو عن مدى هذا الاختيار وحدوده ؟

وكيف نزداد حرية ؟

ومن هو أكثرنا حرية ؟

ثم كيف تكون هناك حرية مع مشـيئة الرب ، وكيف تتفق هذه الثنائية مع عقيدتنا فى التوحيد ؟

تلك هى علامات الاستفهام .

●●●

وبرغم قهر الظروف وكثرة الضوابط والموانع التى تحد حرية الإنسان هنا وهناك . فـإن الإنسان تبقى له مسـاحة يتحرك فـيها ويختار .. وتتسع هذه المساحة كلما اتسع علمه .

وقد أجاب الغزالى عن هذا التساؤل الأزلى بكلمات فقال :

« إن الإنسان مـخير فيـما يعلم ، مسـير فيـما لايعلم .. أى أنه يزداد حرية كلما ازداد علما» .

وقد رأينا مصـداق هذا الكلام فى حياتنا العصـرية ، وشاهدنا

الإنسان الذى تزود بعلوم البخار والكهرباء ، والذرة يتجول فى الفضاء بالطائرات ، والأقمار ويهزم الحر والبرد ويسخر قوانين البيئة ورأينا مساحة حريته تزداد ومجال تأثيره يتضاعف .

وقرأنا فى القرآن عن الذى عنده علم من الكتاب ، وكيف نقل عرش بلقيس فى طرف عين .

وقرأنا كيف عرج محمد عليه الصلاة والسلام بمدد من الله الى السموات ، وكيف جاوز سدرة المنتهى وبلغ مقام قاب قوسين أو أدنى من ربه وذلك هو مجال الحرية الذى يزداد كلما ازداد علم صاحبه والذى يبلغ أعلى المقامات بالعلم الربانى اللدنى ، وبالمدد الإلهى الإحسانى .

فالحرية حقيقة .

والاختيار حقيقة .

والناس متفاوتون فى هذه الحرية بتفاوت علمهم ، وتفاوت مقاماتهم قربا وبعدا من الله ، لأن هذه الحرية لا تأتى إلا بالله ومن الله .

فالعلم منه والسلطان منه ، والنفخة التى نقلتنا من جمادية الطين إلى إنسانية الإنسان هى نفخته الربانية ، والتطلع إلى الحرية فطرة ضمن الفطر التى فطرها الله فينا .

وكل إنسان مفطور على اختيار الأحسن من وجهة نظره . فأما الواحد من عوام الناس فيختار نفسه ومصلحته ، وشهوته لأنه يرى بنظره القريب أن نفسه هى الأحسن بين جميع الاختيارات .

وأما العارف بالله فهو لايختار إلا الله لأنه يرى بنظره البعيد أن الله هو الأحسن بين جميع الاختيارات ، وهو باختياره لربه يخرج عن نفسه وعن اختياراتها ، ويسلم إرادته لاختيارات الله له وذلك هو منهج الطاعة .

وهو بخروجه من نفسه يخرج من المخالفة إلى الموافقة ، ومن الثنائية إلى التوحيد ، ومن المعاندة إلى الانسياب مع الله فى كافة أحواله وتقلباته .

فإذا وقع فى المعصية فإنه لايصح لـه أن يقول إن الله قدرها عليه : لأن الله لايختار لنا إلا شريعته ، ولا يحب لنا إلا طاعته ، وهو العارف صاحب الدعوى الذى ادعى أنه خرج من إرادته إلى إرادة ربه .. فهو إن عصى فإن معصيته تشهد على كذب دعواه وأنه مازال عند نفسه لم يبرح .

بل إن العارف الحق بخروجه من نفسه يخرج من منطقة الاختيار كلها ويدخل منطقة الإسلام .. الإسلام لله وللمشيئة الإلهية .. فهو يجتهد فى عمله لأن الله أحب له الاجتهاد ولكنه لايحزن لخسارة ولا يفرح لنجاح ولا يأسى على فشل ، لأنه فوض النتائج إلى الله وارتضى أحكامه بلا جدل

وبخروجه من منطقة الاختيار يخرج أيضا من منطقة المساءلة وترفع عنه المحاسبة فيكون ممن يوفى لهم أجرهم بغير حساب وتلك هى سنة الفرقة الناجية .. خروج من اختيار النفس إلى اختيار الرب .. وتبرؤ من الحول والطول .. وإسقاط للتدبير .

يقول الصوفى النفرى إلهاما عن ربه :

« يا عبدى ألْقِ الاختيار ، ألْقِ المساءلة البتة » .

فأهل التفويض والتوكل هم أهل الجنة بالتزكية ، لأنهم أسقطوا اختيارهم وعاشوا وفق الإرادة الإلهية .

أما أهل الاختيار فهم واقفون عند نفوسهم يتخيرون بين حظوظهم ، وقد وكلوا أمرهم إلى عقولهم التى تخطىء وتصيب ..

فوضعوا أنفسهم مع أهل المساءلة فمن يختر يسأل .

ومن أسقط الاختيار وأسقط التدبير لايعود هناك مجال لمساءلته ، فمثله لاتقع فى حقه معصية ، لأنه أسقط مشيئته ضمن ما أسقط من اختيارات .

وشاهد إسقاط التدبير فى حق العارف هو كماله ، فلا يكون مع الله إلا الكُمّل .. ولايصح الادعاء بأنك مع الله وشواهد أعمالك تدل على أنك مع هواك وشهواتك ، فتلك تكون حجة الله عليك بأنك كذاب .

ولهذا لايترك الله المؤمنين العارفين الذين يدعون أنهم من أهله وخاصته ، دون أن يبتليهم ويفتنهم فتلك دعوى عريضة لايصح أن تفوت دون امتحان .

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (العنكبوت : ٢، ٣)

والعجيب أن الملحدين وأهل الفكر المادى يقولون بالجبر والحتمية ، ثم نرى جميع تصرفاتهم أبعد ماتكون عن هذا الاعتقاد وكان المفروض لو كانوا صادقين فى دعواهم بعدم جدوى الحرية الفردية ، أن يسلموا هذه الحرية لربهم المزعوم (المادية الجدلية) ولكن مايحدث دائما هو العكس ، فنرى تاريخهم تاريخا دمويا لجبابرة الحكم الفردى .. ستالين .. لينين .. منجستو .. وما منهم إلا مُدَعٍ يتصور أنه يصنع التاريخ .. وينسى الواحد منهم أنه قال منذ لحظات أن المادية التاريخية هى التى صنعت له وعيه وعقله وموقفه .

فإذا كانت المادية التاريخية هى التى أفرزت الفن والفكر

والدين والوعى فكيف بك يا صاحبى تعود فتدعى لنفسك أنك تصنع التاريخ وأنت أحد مصنوعات هذا التاريخ إلا أن تكون قد عدت فناقضت نفسك ، وتصورت لإرادتك علوا على التاريخ المادى بما يشفع لها أن تعود فتصنع التاريخ من جديد .

وإذا كان للإرادة الإنسانية علو على التاريخ فذلك هو سبق الفكر على المادة الذى تنكرونه فى (أ - ب) فلسفاتكم .

فها أنتم قد تصورتم أنكم وضعتم الهرم على قاعدته ، ثم عدتم فقلبتموه على سنامه .

وهؤلاء هم أهل الضلال البعيد .

أما الوجوديون والعبثيون من أهل الحياة مع الهوى واللحظة فهؤلاء يقولون إنهم اختاروا نفوسهم ، فالحياة الحقة عندهم هى أن تكون نفسك .. لاتعبأ بعرف أو تقليد أو دين أو أخلاق ، وإنما تعيش لحظتك كما تحب وتهوى ، فأنت لاتملك غير لحظتك واللحظة التى تمضى لاتعود . والحق أن كلا منهم قد اختار حيوانه ، وأطاع غريزته وأسلم لنزوته واستلهم فكرته .. فهو الآخر عبد وإن تصور أنه حر .. عبد لآلهة كثيرة تتجاذبه وتتقاسمه .. ثم أنه هو وآلهته عبيد لله دون أن يدرى .. فالكل منه وإليه .

﴿ قل كل من عند الله ﴾

والكون بنواميسه وما فيه من جمال وفن وفكر ، وحب وقوانين مادية جدلية ونظريات عبثية ووجودية وأفكار فوضوية.. هو كون مخلوق لله .. وهو مظهر من مظاهر التجلى الإلهى والمشيئة الإلهية .. فلا شىء فى الكون يخرج عن مشيئة الله ، وأن خرجت بعض الأشياء عن رضاه .

والكل مسلم لله طوعاً أو كرهاً .

وإنما كل الفارق هو فارق بين عارف وجاهل .

فالعارف أدرك الحقيقة فأسلم باختياره وخرج عن نفسه طوعاً وحبا وكرامة وانضوى تحت المشيئة بكليته راضياً سعيداً.

والجاهل تصور أنه ليس عبداً لأحد .. وأنه لا مشيئة لأحد عليه وأنه اختار نفسه (وهو ما اختار إلاحيوانه) .

والحق أنه هو الآخر عبد خاضع دون أن يدرى .. وإنما هو خاضع بالكرباج ، منساق بالعصا يتصور أنه يسير إلى الأمام ، وهو يدور فى ساقية وعلى عينيه عصابة كالثور يكدح لبطنه وشهواته .

وقد أخرجه جهله وعناده من القرب إلى البعد .

فلأهل البعد النار ولأهل القرب الجنة .

وإنما تكون الجنة مكافأة لعارف عرف .

ولا حرية إلا لعارف .

ولا حرية إلا بالله ومن الله .

ولا تأتى الحرية إلا خلعة من الله .

إنما تأتى حرية العارف من أنه اختار ربه فخلع الله عليه حريته وصفاته ، فأصبح العبد الربانى الذى يرى ببصر الله ويسمع . بسمع الله ويحيا بحياته : وتلك هى الحرية القصوى التى يحرك بها العارف الجبال ، والتى أسرى بها محمد عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى وعرج إلى السماوات وجاوز المنتهى .. والتى أحيا بها عيسى الميت .

أما التحرر بمعنى التمرد على الشرائع ، وعصيان الأمر الإلهى واستباحة الأعراف الخلقية فهو مثل السباحة ضد التيار ، نهايتها الإنهاك والتعب ثم الغرق .

وكيف يكون الإضـراب عن الطعام والشـراب والتنفس حرية ، وهل تكون إلا حرية الموت أو حرية القـضاء علي الحرية . وكيف يكون اتبـاع الشـهوات حـرية ، والشهـوات ذاتها عـبودية وقـيد ؟ وكيف تزداد حرية بدخولك في جاكتة جبس وخضوعك لحيوانك؟ إنما التحرر لا يكون إلا خروجا مـن النفس وضروراتها واستعلاء علي هواها وشـهواتها .

والعارف الذى خرج من نفسه واخـتار ربه هو بالمعني العميق قد اختـار حقيقـته ، فهو ما خـرج إلا عن نفسه الحيـوانية الأمارة وتلك نفس دونية طينية حكمها حكم الجسد .

أما حقيقة كل إنسان فهى نفسه العلوية الملكوتية التى هى على مثال النفخة الربانية التي أودعها الله في الجسـم .

وهي المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم في المبدأ الأول .

والعارف باخـتياره لربه قـد اختار نـفسه الحـقيقـية « النفس المثال التي خلقها الله في أحسن تقويم » .

﴿ لقـد خلقنا الإنسان في أحـسن تقويم ، ثم رددناه أسـفل سافلين ﴾ (التين : الآيتان ٤ ـ ٥)

ولقـد ردنا الله إلى أسـفل سـافلين حـينمـات أودع هذه النفس العلية في الحشـوة الطينية ، وابتلاها بالشهوات والحـيوانية وتلك هي حيـاتنا الدون التي نحيـاها ، ولكن العارف بخـروجه من هذه النفس الحيوانية يسترد شفافيـته الأولى ، ويعيش نفسه الحقيقية ويكتشف نسبه الروحانى باعتباره نفخة من الله ، وهو بهذا يختار أصله وحقيقته ، يختار ربه .

إنه إذن أعلى درجات الاختيـار وإن كان فى الظاهر خروجا من الاختيار وإسقاطا للتدبير .

وحرية العبد بهذه الصورة لا تتنافى مع التوحيد فما أخذ العبد حريته إلا من الله ، وما جاءت حريته فى أن يشاء إلا بمشيئة إلهية ودستور إلهى .. فقد أرادنا الله أحرارا .. ولم نغتصب نحن هذه الحرية من الله اختلاساً .

﴿ وماتشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ (الإنسان : الآية ٣٠)

ثم إن الله حينما قضى علينا قضاءه المسجل فى كتابه ، فإنما قضى على كل إنسان قضاء من جنس قلبه ، ومن جنس ضميره ، ومن جنس نيته .. من أراد حرث الدنيا مهد له فيها ، ومن أراد حرث الآخرة هداه إليها .

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ﴾ (الشورى : الآية ٢٠)

﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم﴾ (الأنفال : الآية ٧٠)

﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ (الليل: الآيات ٥ ـ ١٠)

﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾(البقرة :الآية ١٠)

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ (محمد : الآية ١٧)

تأتى التيسيرات دائما من جنس النية .. فلا ثنائية ولا تضاد بين اختيار الرب واختيار العبد .. وإنما الإرادتان تلتقيان فى خط واحد وإرادة واحدة .. الله يسيرك إلى عين اختيارك ويختار لك من جنس نيتك لا تناقض ولا ضدية .

ومراد الله بهذا أن يُخرج المكتوم فى القلب .

﴿ والله مُخرج ماكنتم تكتمون ﴾ (البقرة : الآية ٧٢)

ليتم الغرض من الدنيا كدار ابتلاء وامتحان .

ويظل الله هو الحاكم الأحد بلا شبهة شريك .. فلا حرية إلا به، ولا تيسير ولا تمكين إلا بإذنه .

أما خارجاً عن الله .. فلا حرية ولا حياة ولا قدرة .

فما سوى الله نار ..

وما سوى الله ظلمة ..

وما سوى الله قيد ..

وسبحان الذى أسرى بعبده ..

فلا سريان لنا إلا على جناحه .. ولا نفاذ من أقطار السماوات والأرض إلا بسلطانه ..

ولا حرية إلا به .

ولا نور إلا بنوره ..

وهذا الاعتراف هو عين الإسلام ..

وهو عين شهادة أن لا إله إلا الله .. أى لا حاكمية ولا سلطان إلا له .. تقدست أعتابه عن الند والضد ، والصاحبة والولد والشريك والشبيه .

مـــاذا وراء

بوابة الموت

٤

نقطـــة مـــن

.. المحيـــط

فى ساعات الصفاء حينما تنقشع الغواشى عن القلب وتنجلى البصيرة ، وأرى كل شىء أمامى بوضوح ، تبدو لى الدنيا بحجمها الحقيقى وبقيمتها الحقيقية فإذا هى مجرد رسم كروكى أو ديكور مؤقت من ورق الكرتون أو بروفة توزع فيها الأدوار لاختيار قدرات الممثلين ، أو مجرد ضرب مثال لتقريب معنى بعيد ومجرد وهى فى جميع الأحوال مجرد عبور ومزار ومنظر من شباك فى قطار .

وهى الغربة وليست الوطن .

وهى السفر وليست المقر .

أعجب تماما وأدهش من ناس يجمعون ويكنزون ويبنون ويرفعون البناء وينفقون على أبهة السكن ورفاهية المقام وكأنما هو مقام أبدى وأقول لنفسى أنسوا أنهم فى مرور ؟ ألم يذكر أحدهم أنه حمل نعش أبيه وغدا يحمل ابنه نعشه إلى حفرة يستوى فيها الكل ؟ وهل يحتاج المسافر لأكثر من سرير سفرى وهل يحتاج الجوال لأكثر من خيمة متنقلة ؟

ولم هذه الأبهة الفارغة ؟ ولمن ؟ ولمن الترف ونحن عنه راحلون؟ هل نحن أغبياء إلى هذه الدرجة ؟ أم هى غواشى الغرور والغفلة والطمع وعمى الشهوات وسعار الرغبات وسباق الأوهام ؟ وكل ما نفوز به فى هذه الدنيا وهم ، وكل ما نمسك به ينفلت مع الريح .

والذين يتقاتلون ليسبق الواحد منهم الآخر أكثر عمى فالشارع سد عند نهايته وكل العربات تتحطم ويستوى فيها السابق باللاحق ، ولا يكسب أحد منهم إلا وزر قتل أخيه . بل إن أكثر الناس أحمالا وأوزارا فى هذه الدنيا هم الأكثر كنوزا والأكثر ثراء فكم ظلموا أنفسهم ليجمعوا وكم ظلموا غيرهم ليرتفعوا على أكتافهم .

ولعلنا سمعنا مثل هذا الكلام ونحن نلهث متسابقين على الطريق فهو كلام قديم قدم التاريخ رددته جميع الأسفار وقاله جميع الحكماء ولكننا لم نلق له بالا ولم يتجاوز شحمة الأذن .

ومازلنا نسمع ولا نسمع برغم تطور أدوات الاستماع وكثرة الميكروفونات ومكبرات الصوت ، ولقطات الهمس الالكترونية من فوق الفضاء ومن تحت الثرى .

ومازلنا نزداد صمما عن إدراك هذه الحقيقة البسيطة الواضحة وكأنها طلسم مطلسم ولغز عصى على الأفهام .

هل نحن مخدرون ؟

أم هناك ما هو أقوى أثرا وأكثر شراسة من الخمور والمخدرات ، هى مادية العصر التى طبعت الناس بذلك الشعار المسكر ؟ شعار غامر واكسب وانهب واهرب وسارع إلى اللذة قبل أن تفوت وعش لحظتك بملئها طولا وعرضا ولا تفكر ماذا بعد فقد لا يكون هناك بعد .

نعم تلك هى الخدعة التى يستدرج إليها الكل أنه لا شىء بعد وهى ليست خدعة بل هى روح الفلسفة المادية ويقينها أنه لا شىء سوى ما نرى ونسمع ونذوق ونلمس من ماديات ، وأنه ليس وراء هذه الدنيا شىء ونفوسنا الأمارة استراحت إلى هذه

الفلسفة لأنها تشبع لها رغائبها وتحقق لها مشتهياتها ، والحيوان فى داخلنا اختارها لأنها تشبع غرائزه .

ألم يدع الصوفى الكامل أبو الحسن الشاذلى ربه متوسلا أن يأخذه من هذه النفس فقال : « رب خذنى إليك منى وارزقنى الفناء عنى ، ولا تجعلنى مفتونا بنفسى محجوبا بحسى» وتلك النفس هى الفتنة والحجاب وهى التى أفرزت هذه الحضارة المادية وروجتها.

ألم يسأل داود ربه : « يارب كيف أصل إليك . فقال له ربه أترك نفسك وتعال » . أن يترك هذه النفس لأنها العقبة : ﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة ﴾

(البلد : الآيات ١١ ـ ١٣)

لا انفكاك من هذه العقبة إلا بالانفكاك من طمعك . فتفك الرقبة وتطعم المسكين وتؤثر غيرك على نفسك ، ولذلك لم يطلب الإسلام من المسلم نبذ الدنيا وإنما طلب منه قمع النفس وكبحها وشكمها لأن النفس هى الأصل والدنيا مجرد أداة لتلك النفس لتختال وتزهو وتتلذذ وتستمتع .

إن النفس هى الموضوع وهى ميدان المعركة ومحل الابتلاء والدنيا ورقة امتحانها ومطلوب الدين هو الارتقاء بهذه النفس والارتفاع بها من شهوات البطن والفرج ومن شهوات الجمع والاكتناز ، ومن حمى الاستعراض والكبر والتفاخر ليكون لها معشوق أرقى هو القيم والكمالات ، ومعبود واحد هو جامع هذه الكمالات كلها .

وإنما تدور المعركة فى داخل النفس وفى شارع الدنيا حيث يتفاضل الناس بمواقفهم من الغوايات والمغريات وما تعرض

عليهم شياطينهم من خواطر السوء ومن فرص اللذة كل لحظة .

ولم يطلب الإسلام من المسلم أن ينبذ الدنيا ، بل طلب منه أن يخوضها مسلحا بهذه المعرفة فالدنيا هى مزرعته وهى مجلة أفعاله وصحيفة أعماله .

وقدم له فلسفة أخرى فى مواجهة الفلسفة المادية قدم له فلسفة استمرار وبقاء فهو لن يموت ويمضى إلى عدم بل إلى حياة أخرى سوف تتعدد فصولا وتمضى به كدحا وجهادا حتى يلقى ربه : ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه** ﴾ (الانشقاق : الآية ٦) .

الحضارة المادية لم تقدم للإنسان إلا الموت وحياة تمضى سدى وتنتهى عبثا أما الإسلام فقدم للإنسان الخلود وحياة تمضى لحكمة وتنتقل من طور إلى طور وفقا لنواميس ثابتة من العدل الإلهى حيث لا يذهب أى عمل سدى ولو كان مثقال ذرة من خير أو شر .. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

واليوم تصل الحضارة المادية إلى ذروة من القوة والعلم وتكتمل لها أدوات الفعل والتأثير من إذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح وكتب ومجلات وهى سواء كانت أمريكية أو سوفيتية فهى لا تفتأ تغتال العقل والروح وتتحالف على الإنسان بخيلها ورجلها ولكنها برغم كل شىء ضعيفة متهافتة واهية لأنها تغتال نفسها ضمن ما تغتال وتأكل كيانها ، وسوف تقتتل مع بعضها البعض وتتحارب بالمخلب والناب وبالقنابل الذرية والقذائف النووية فالطمع والجشع حياتها وموتها .

وعلى رقعة صغيرة من الأرض يقف الإسلام كمنارة فى بحر

لجى مظلم متلاطم الموج يعج بالبوارج والغواصات وحاملات الصواريخ وحاملات الرؤوس النووية .

وما أكثر المسلمين ممن هم فى البطاقة مسلمون ولكنهم فى الحقيقة ماديون اغتالتهم الحضارة المادية بأفكارها وسكنتهم حتى الأحشاء والنخاع فهم يقتل بعضهم البعض ويعيشون لليوم واللحظة ويجمعون ويكنزون ويتفاخرون ولا يرون من الغد أبعد من لذة ساعة ، ويتكلمون بلغة سوفيتية أو لغة أمريكية ولا يعرفون لهم هوية .

وقد نجد من يصلى منهم إلى القبلة خمس مرات فى اليوم ولكن حقيقة قبلته هى فاترينة البضائع الاستهلاكية .

ولا يبقى بعد ذلك إلا قليل أو أقل القليل ممن عرف ربه . ولو بقى مؤمن واحد مرابط على الحق فى الستة آلاف مليون فهو وحده أمة ترجحهم جميعا عند الله يوم تنكشف الحقائق وينهدم مسرح العرائس ويتمزق ديكور الخيش والخرق الملونة وتنهار علب الكرتون التى ظنناها ناطحات سحاب وتنتهى الدنيا .

وحينئذ وعندما تهتك الأستار وتقام الموازين سوف نعرف ما الدنيا وماذا تساوى وماذا يساوى كل الزمن حينما نضع أقدامنا فى الأبد .

وحينئذ سوف نتذكر الدنيا كما نتذكر رسما كروكيا أو مسرح خيال الظل أو نموذج مثال مصنوع من الصلصال لتقريب معنى بعيد ومجرد .

وسوف نعلم أنها ما كانت سوى النقطة التى فيها كل أملاح البحر المحيط ولكنها لم تكن أبدا البحر المحيط .

من أنت ؟

من أنت .. حينما تتردد لحظة بين الخير والشر ..
من تكون ..؟!
أتكون الإنسان الخير أم ، الشرير أم ما بينهما..؟!
أم تكون مجرد احتمال للفعل الذى لم يحدث بعد..؟!

إن النفس لا تظهر منزلتها ولا تبدو حقيقتها إلا لحظة أن تستقر على اختيار ، وتمضى فيه باقتناع وعمد وإصرار ، وتتمادى فيه وتخلد إليه وتستريح وتجد ذاتها .

ولهذا لا تؤخذ على الإنسان أفعال الطفولة ، أو أفعال المراهقة ولا ما يفعله الإنسان عن مرض أو عن جنون أو عن إكراه .. وإنما تبدأ النفس تكون محل محاسبة منذ رشدها ، لأن بلوغ الرشد يبدأ معه ظهور المرتكزات والمحاور التى ستنمو عليها الشخصية الثابتة .

واختيارات الإنسان فى خواتيم حياته هى أكثر ما يدل عليه ، لأنه مع بلوغ الإنسان مرحلة الخواتيم يكون قد تم ترشح وتبلور جميع عناصر شخصيته ، وتكون قد انتهت ذبذبتها إلى استقرار وتكون بوصلة الإرادة قد أشارت إلى الطابع السائد لهذه الشخصية .

ولهذا يقول الصوفيون : «العبرة بالخواتيم» .. وما يموت عليه العبد من أحوال ، وأعمال وما يشغله فى أيامه الأخيرة هو

ما سوف يبعث عليه .. تماما كما ينام النائم فيحلم بما استقر فى باله من شواغل لحظة أن رقد لينام .

ولهذا أيضا لا تؤخذ النفس بما فعلته وندمت عليه ورجعت ، ولا تؤخذ بما تورطت فيه ثم أنكرته واستنكرته ، فإن الرجوع عن الفعل ينفى عن الفعل أصالته وجوهريته ويدرجه مع العوارض العارضة التى لاثبات لها .

وقد أعطى الله الإنسان مساحة كبيرة هائلة من المنازل والمراتب .. يختار منها علوا وسفلا ما يشاء .. أعطاه معراجا عجيبا يتحرك فيه صاعدا هابطا بلا حدود .. ففى الطرف الصاعد من هذا المعراج تلطف وترق الطبائع ، وتصفو المشارب والأخلاق حتى تضاهى الأخلاق الإلهية فى طرفها الأعلى (وذلك هو الجانب الروحى من تكوينه) وفى الطرف الهابط تكثف وتغلظ الرغبات والشهوات ، وتتدنى الغرائز حتى تضاهى الحيوان فى بهيميته ، ثم الجماد (فى جموده وآليته وقصوره الذاتى) .. ثم الشيطان (فى ظلمته وسلبيته) وذلك هو الجانب الجسدى الطينى من التكوين الإنسانى .

وبين معراج الروح صعودا ومنازل الجسد والطين هبوطا ، تتذبذب النفس منذ ولادتها ، فتتسامى هنا وتتردى هناك بين أفعال السمو وأفعال الانحطاط ، ثم تستقر على شاكلتها وحقيقتها.

﴿ **قل كل يعمل على شاكلته** ﴾ (الإسراء : الآية ٨٤)

ومتى يبلغ الإنسان هذه المشاكلة والمضاهاة بين حقيقته وفعله فإنه يستقر ويتمادى ، ويمضى فى اقتناع وإصرار على خيره أو شره حتى يبلغ نهاية أجله .

ومعنى هذا أن النفس الإنسانية أو « الأنا » .. هى شىء غير الجسد .. وهى ليست شيئا معلوما بل هى سر وحقيقة مكنونة لا يجلوها إلا الابتلاء والاختبار بالمغريات .

وما الجسد والروح إلا الكون الفسيح الذى تتحرك فيه تلك النفس علوا ، وهبوطا بحثا عن المنزلة التى تشاكلها وتضاهيها والبرج الذى يناسب سكناها فتسكنه .. فمنا من يسكن برج النار (الشهوات) وهو ما زال في الدنيا ، فلا يبرح هذا البرج حتى الممات ، فتلك هى النفس التى تشاكل النار فى سرها وهى التى سبق عليها القول والعلم بأنها من أهل النار .

وذلك علم سابق عن النفوس لا يتاح إلا لله وحده ، لأنه وحده الذى يعلم السر وأخفى ، فهو بحكم علمه التام المحيط يعلم أن هذه الحقيقة المكنونة فى الغيب التى اسمها فلان ، والتى مازالت سرا مستترا لم يكشفه الابتلاء والاختبار بعد ، والتى لم تولد بعد ولم تنزل فى الأرحام .. يعلم ربنا تبارك وتعالى بعلمه المحكم المحيط أن تلك النفس لن تقر ولن تستريح ولن تختار إلا كل ما هو نارى شهوانى سلبى عدمى .. يعلم عنها ذلك وهى مازالت حقيقة مكنونة لا حيلة لها فى العدم .

وهذا العلم الربانى ليس علم إلزام ولا علم قهر ، بل هو علم حصر وإحاطة ، فالله بهذا العلم لا يجبر نفسا على شر ، ولا ينهى نفسا عن خير ، فهو يعلم حقائق هذه الأنفس على ما هى عليه دون تدخل .

فإذا جاء ميقات الخلق (وجميع الأنفس تطلب من الله أن يخلقها ويرحمها بإيجادها وهى مازالت حقائق سالبة فى عالم الإمكان فى العدم) أعطى الله تلك النفس اليد ، والقدم واللسان

لتـضـر وتنفع وأعطاها ذلك الكون الـفسـيح الذى اسـمـه الروح والجسد لتـمرح فيه صـاعدة هابطة تختار من منازله مـا يشاكلها لتسكن فيه .. فإذا سكنت واستقرت ، وتسجلت أعمالها قبضها الله إليـه إلى يوم البـعث والحـساب المـعلوم .. حـيث تقـرأ كل نفس كتابها.. وتعلم منزلتها فلا يعود لأحد العذر فى أن يحتج بعد ذلك حينما يضعه الله فى مستقر الجنة أو مستقر النار الأبدية .

وقـد أعـذر الله وأنذر الجـميع ، مـن قبل ذلـك بالرسل والكتب والآيات وأقـام عليـهم الحجـة بمـا وهب لهم من عـقل وضـمـيـر وبصيرة، وحواس تميز الضار من النافع والخبيث من الطيب .

ولهذا حينما تطالب النفوس المجرمة فى النار أن تعطى فرصة أخـرى ، وأن ترد إلى الدنيا لتـعمل الـصالحـات ، وحينمـا يدعى البعض أن تعذيب تلك النفوس أبديا على ذنوب مؤقتة ارتكبتها فى الزمن المحدود هو أمر ظالم .

حينئذ يجيب ربنا متحدثا عن هؤلاء المجرمين قائلا :

﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾

(الأنعام : الآية ٢٨)

وفى هذا الرد البليغ إشارة إلـى أن إجرام تلك الأنفس لم يكن ذنبـا موقـوتا فى الزمن .. بل إنهم ليـعاودون هذا الجـرم فى كل زمن ومهمـا عاود الله خلقهم .. لأن ذلك الإجرام حقـيقة مكنونة ، وليس عرضا محدودا بالزمـان والمكان .. ولهذا كان عقابه الأبد ، وليس العذاب الموقوت .

ونقول أيضا : إن هناك عـدالة عميقة كامنة فى هذا المـصير .. نارا أبدية أم جنة .. إن كل نفس بينها وبين ذلك المـصير النهائى مشاكلة تامة ، ومضاهاة وائتلاف فى الحقائق .. فالحقائق النارية

تسكن النار والحقائق النورانية تسكن الجنة .. فلا قسوة هناك ولا وحشية ، إنما وضع كل شيء في مكانه .

والسر الآخر الذى ينكشف لنا أن البيئة لا يمكن أن تصنع من إنسان صالح (نفسه صالحة بالحقيقة) إنسانا مجرما ولا العكس، وأن الكلام على أن مظالم المجتمع جعلت فلانا لصا ، هذا الكلام لا يصدق دينيا ولا واقعيا . فالمجتمع يضع للجريمة إطارها فقط ولكن لا ينشيء جريمة فى إنسان غير مجرم .. بمعنى أن لص هذا الزمان تعطيه امكانات العصر العلمية وسائل الكترونية وأشعة ليزر ليفتح بها الخزائن ، بينما نفس اللص منذ عشرين سنة لم يكن يجد إلا طفاشة .. كما أن قاتل اليوم يمكن أن يستخدم بندقية مزودة بتلسكوب (كما فعل قاتل كنيدى) بينما هو فى أيام قريش لا يجد إلا سيفا ، ثم قبل ذلك بعدة قرون لا يجد إلا عصا، ثم قبل ذلك على أيام قابيل وهابيل لا يجد إلا الحجارة .

إن المجتمع والعصر والظروف تصنع للجريمة شكلها ، ولكنها لا تنشيء مجرما من عدم ، ولا تصنع إنسانا صالحا من نفس لاصلاح فيها .

وبالمثل لا يستطيع الأبوان بحسن تربيتهما أن يقلبا الحقائق فيخلقا من ابنهما المجرم ابنا صالحا ولا العكس .

ونجد فى سورة الكهف حكاية عن غلام مجرم كافر ، أبواه مؤمنان :

﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ (الكهف : الآية ٨٠)

وبعض الأنبياء كانوا من آباء كفرة ، واستجابت أكثر الأقوام لهؤلاء الأنبياء ولم يستجب الآباء .

من الذى يســتطيع أن يقلب حقـائق الأنفس ويغيـرها ؟ لا أحد سوى الله وحده .

والله لا يفعل ذلك إلا إذا طلبت النفـس ذاتها أن تتغيـر وابتهلت من أجل ذلك ، لأنه واثقنا جـمـيعـا على الحـرية التامـة وعلى أنه لا إكراه فى الدين .. وأن من شـاء أن يكفر فليكفـر ، ومن شاء أن يؤمن فليـؤمن .. وأنه لن يقهـر نفسـا على غيـر هواها .. وأنه لن يغير من نفس إلا إذا بادرت بالتغيير وطلبت التغير :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

(الرعد : الآية ١١)

وتلك هى التزكية :

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمتـه مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ (النور . الآية ٢١)

وعلى الإنسان أن يبدأ بتزكية نفسه وتطهيرها :

﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾

(الشمس : الآيتان ٩ : ١٠)

﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ (فاطر : الآية ١٨)

ولا سبيل إلى تطهير النفس وتزكيتها إلا بإتقان العبادة والتزام الطاعات ، وإطالة السجود وفعل الصالحات .

وبحكم رتبة العبودية يصبح الإنسان مستحقا للمدد من ربه .

فيمده الله بنوره ويهيىء له أسباب الخروج من ظلمته .

وذلك هو سلوك الطريق عند الصوفية بـالتخلية (تخلية النفس من الصـفـات المـذمـومـة) ثم التـحلية (تحـليـة القلب بالذكـر والفضائل) والتعلق والتخلق والتحقق .

والتعلق عندهم هو التعلق بالله وترك التـعلق بما سواه والتخلق

هو محاولة التحلى بأسمائه الحسنى ، الرحيم والكريم والودود والرؤوف والحليم والصبور والشكور .. قولا وفعلا .

والتحقق هو أن تصل إلى أقصى درجات الصفاء واللطف والمشاكلة ، فتصبح ربانيا فى طباعك أو تكاد .

ولا سبيل إلى صعود هذا المعراج إلا بالعبادة والطاعة والعمل الصالح ، والتزام المنهج القرآنى والسلوك على قدم محمد العبد الكامل ، والعارف الكامل عليه صلوات الله وسلامه .

والذى يعلق على هذا الكلام فيقول :

قولك عن النفس إنها « السر » هو كلام أغمضت فيه ، وألغزت وحجبت وما كشفت .

أقول له إن نفسا فيها القابلية للحركة على جميع تلك المعارج صعودا ، وهبوطا ، وفيها القابلية أن تكون ربانية أو شيطانية أو حيوانية أو جمادية .

نفس بهذه الامكانات هى « السر الأعظم » ذاته ، ومن ادعى أنه أدرك السر الأعظم ؟!!

إن هى إلا أصابع تشير .

والمشار إليه لا يعلمه إلا الله .

ونحن جميعا لا نعلم .

ماذا وراء
بوابة الموت

٦

الصوفى
والبحر

مد الرجل ساقيه فى استرخاء لذيذ، ونظر إلى البحر المديد الأزرق كأنه يشربه ويشرب لونه. وترك روحه ترضع من هذه الشفافية اللؤلؤية والأنوار المتشعة الذائبة فى المياه.

شىء ما فى ذلك البحر كان يبدو لعينيه. وكأنه من وراء العقل ومن وراء الحس.. شىء كالغيب، يسطع خلال المظاهر.

وتذكر كلمات ذلك الصوفى الذى قال إنه اشتاق إلى ربه، وإنه احترق إليه شوقا، وكاد عقله يهلك عجزا عن بلوغه لولا أن نور الله كان يلوح له من وراء أستار الغيب، ومن خلال الجمال المتجلى فى الوجود فيروى ظمأه بين الحين والحين.

وذلك هو الشرب والسكر الذى يحكى عنه الصوفية.

شرب الجمال المتجلى فى الوجود.

ذلك الشرب المغيب الذى يترك الروح نشوانة.. هيمانة.. تهتف: الله.. الله.

وقد أدرك صاحبنا فى جلسته أمام البحر لأول مرة ذلك المعنى البعيد الذى حكى عنه.. الصوفية.. وشعر بذلك الشرب المغيب.. وهتفت روحه النشوانة، وقد أدركت طرفا من تلك الحضرة الإلهية المتجلية فى الأشياء.. هتفت هيمانة سكرانة.. الله.

لقد اتصلت روحه لأول مرة بنبع الحسن، ومصدر الفتنة وسر

الجلال والجمال فى الأشياء.. وباشر تلك الرجفة الكهربائية وأحس بتلك الرعشة الروحية وهو يلامس السر السارى فى الوجود وفى نفسه.

وذلك هو حضور المحبوبة المعشوقة التى كان يسأل عنها المحب الهيمان طوال الوقت، ويبحث عنها ويرتحل إليها وهى طوال الوقت معه دون أن يدرى.. فى سواد عينيه.. وفى حنايا ضلوعه.. وأقرب إليه من حبل الوريد..

ومن عجب أنى أحن إليهمو
وأسأل عنهم من أرى وهمو معى
وترصدهم عينى وهم فى سوادها
ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

فما كان الحسن والجمال والفتنة التى لمح طرفا منها فى الشفاه والخدود والقدود إلا مددا من ذلك الغيب المغيب، ولا كان إلا تجليا لذات الحسن المتفردة.. «الذات الإلهية» التى هى أقرب إليه من نفسه وأقرب إلى عينيه من سوادهما، وأقرب إلى لسانه من نطقه.

إن ليلاه فيه .. وهو يقطع البوادى بحثا عنها. «وذات الحسن المتفرد» التى أفاضت من حسنها البديع على كل شىء.. أقرب إليه من حبل وريده، وأوثق اتصالا به من دمه فى شرايينه.

وحينما يدرك الصوفى ذلك يصيبه برد السلام، ويهدأ فى جوانحه طائر القلب، وتنشر عليه السكينة لواءها، ويصبح صاحب الوجه النورانى، والنفس المطمئنة التى لا تزلزلها الزلازل ولا تحركها النوازل.

شعر صاحبنا بتلك الأنوار وهو جالس أمام البحر، وأمامه

قطف من عنب مثلج.. ورأى كل حبة عنب وكأنها تختزن داخلها نورا.. وحينما ذابت فى فمه بردا وحلاوة شعر كأنما تعطيه سرها وتبوح له بمكنونها.. وكان فى تذوقه لحلاوتها شىء كالعبادة.. وكأنما كان ربه هو الذى يطعمه ويسقيه مباشرة، وبدون وساطة ويناوله من كفه الرحمانية ليأكل ويشرب..

وتذكر قول عميد العشاق الإلهيين ابن الفارض

شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فوصف الشاعر خمرا للكرم من قبل أن يخلق الكرم. وتلك هى خمر السر المودع فى الأشياء من قبل أن تخلق الأشياء تلك هى خمر ﴿فإذا نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾.. خمر الأنوار المودعة فى الأشياء. وكل مؤمن مازال يعاود السجود مثل الملائكة كلما استشعر هذه الأنوار.. وكلما باشر سرها وذاق حلاوتها سجدت جوارحه وهتفت نفسه.. الله.. الله..

وشوش له البحر بهذه الكلمات، وكاشفه بتلك الأسرار وهو يهدهده بأمواجه، ويتناثر كحبات الماس على وجهه وساقيه. وبقدر ما كانت صفحة البحر تبدو له هادئة ساكنة مطمئنة.. كان باطن البحر يقول له.. باطنى وسع العالمين.. وسع الحياة والموت.. وسع كل شىء علما.

كان البحر أشبه بالرمز المهموس، والإشارة الدالة والمثل المضروب على القدرة:

﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ﴾
(النور: الآية ٥)

ذلك هو الضوء فى المصباح واللؤلؤة فى الصدفة، والروح فى الإنســان، والجمــال فى البـحر، وتلك هى النـفخـة التى تدل على النافخ ﴿ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ﴾.

فالـزيت يسرى فـيهـا من الذات المبـاركة التى تضىء بذاتـها بدون حـاجـة إلى نار تشـعلهـا.. الـذات التى نورها مـصـدر كل الأنوار.. وتلك هي الشجرة المباركة المنزهة عن الجهات.. فلا هى شرقـية ولا هى غـربية.. فـهى فوق المكان والزمـان ومنزهة عن الأسباب فهى تضىء بلا نار.. تلك هي الذات الإلهية المتعالية على الصور.. ومع ذلك تتجلى فى كل الصور

﴿ هو الظاهر والباطن ﴾

ظاهر فى البحر والشمس والنجوم، وفى وجوه الحسان ولكنه غيرها جميعا.

هو الظاهر سبحانه، ولكنه ليس المظاهر.

وتلك هى الفتنة التى يقع فيها المؤمن والكافر.

تقول لـه المظاهر الجمـيلة وهى تدعوه إلى نفـسهـا بجمـالها ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾.

فإذا افتتن بها ووقع فى أسر جـمالها وعبدها، وقع فى الشرك الخفى وهلك.

وذلك هو حال الأغلبية والكثرة من عشاق المظاهر وعباد المال والجاه والنساء.

وإذا أدرك أن فتنتـها ليـست منها ولكن من الله المتـجلى فيـها وأنها كالمصابيح فى زجاجـات، ولكنها مصابيح لا تضىء بذاتها، وإنما بمدد وأسلاك من شجـرة مباركة هى التى تأتى منها الإنارة لكل المـصابيح.. إذا أدرك ذلك تجـاوز بعبـادته كل المظاهر وكل

المصابيح المنيرة، وتوجه إلى الله الذى ينيرها كلها بنوره.. وخرج من زحام الكثرة إلى صفاء الوحـدة.. واختص الله وحده بالعبادة.. وإذا فعل ذلك نجا. وذلك حال القلة من العارفين. وهذا سر الدنيا.. ولهذا خلقـها الله.. لتمتـحن بإغرائها معـادن النفوس، ويتميـز بها العارف من الجـاهل.. وتتميـز بها المـراتب والمنازل والدرجات.. ويعرف بها أهل الصدق صدقـهم، وأهل الكذب كذبهم حينما تنشر الأعـمال، وتهـتك الأســرار فى يوم الحـشر ويوم الـتغـابن الذى لا ينفع فيه ادعـاء الأدعياء.. يوم يشعر كل إنسان أنه غـبن نفسه حينمـا تعجل لذة تافهة وزائلة لا تسـاوى شيئا وحرم نـفسه من ميراث جنة لا تنفد لذائذها ووشوش له البحر.. وهمس الموج

وتناثر كالماس على وجهه وقدميه.

واتصل السر بالسر.

ومضى الحوار.

ماذا وراء

بوابة الموت

٧

لحظات النشوة!

لا أظنني وحدى الذى عشت تلك اللحظات وباشرت ذلك الشعور .. ذلك الإحساس المؤنس قد عاشه كل منا حينما بلغ شاطىء البحر وألقى بكل همومه خلفه وطرح الدنيا وراءه وألقى بنظرة شوق عانقت المياه اللازوردية وغرقت فى لا نهائية الأفق واستسلمت لتلك المعية المبهمة وذلك الحضور الغيبى .. ذلك العناق الجميل مع المطلق .. فأنا وحدى ولست وحدى .. فمن وراء الزرقة اللازوردية ومن خلف همهمة الموج ومن وراء هذا الإطار البديع واللوحة المرسومة بإعجاز هناك يد الخالق المبدعة لكل هذا .. هناك ذات الرسام انشقت عنها الحجب واستشفها الوجدان واستشرفتها البصيرة .

فكأنما يدور الخطاب بين ذات الرب وذات العبد .. وكأنما يقولى ربى :

ليس بينى وبينك بين .. ليس بينى وبينك أنت .

هذا أنا وأينما توليت فليس ثمة إلا وجهى كل شىء لى ، فكيف تنازعنى مالى ، كل شىء لى وأنا لا شريك لى .

حتى « الأنا » وأنت تدعيها لنفسك .. هى لك نفحة منى أعطيها متى أشاء وأستردها متى أشاء

هى لحظة فريدة من لحظات التجرد الكامل يشعر به أصحاب القلوب فى مجابهة الجمال .. لحظة من لحظات التبرى والتخلى

عن كل الدعاوى والمآرب والأوطار .. والخضوع لصولة الجمال والجلال .

لحظة استنارة وإدراك وتوبة وتنازل وإعادة الحق لصاحبه .

ارتفع الحجاب .. وما كان حجابى سوى نفسى .. سوى «الأنا» المعاندة داخلى .. فما عادت فى داخلى أنانية ولا منازعة ولا ادعاء لحق .. فقد أعدت كل الحق لصاحبه .. لله وحده .. فالله وحده هو الحقيق بأن يقول : « أنا الذى هو أنا » .. إنما أقولها أنا على وجه الاستعارة .

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ (الأنفال : الآية ١٧)

﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (الأنفال : الآية ١٧)

فهذا هو الله يفعل على الدوام .. وهو الفعال لكل شىء .

وحينما يبدو أن الطبيب هو الذى يشفى والطعام هو الذى يشبع والماء هو الذى يروى والسهم هو الذى يقتل .. فإنما هى الأسباب تفعل فى الظاهر . . والله من وراء الأسباب يفعل فى الحقيقة .. هو .. أنه هو دائما .. هو .

هو الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

ولحظة الكشف أشهدتنى الإبداء والإعادة فى حكومة التفريد ومحت عنى ما يرجع إلى ذاتيتى ومحت عنى « الأنا » الأنانية داخلى .. ورفعتنى إلى ذروة معرفية .. وإلى مقام .. ما ثم إلا الله .

﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾(الأنعام :الآية ٩١)

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾(الأنعام : الآية ١٦٢)

انتهى فى داخلى كل ما يخصنى فأنا كلى لله ..محياى ومماتى ونسكى وصلاتى .

أكاد أسمع صوت الله فى قلبى .
ألق الاختيار ، ألق المؤاخذة البتة .
تنازلت ساعتها عن اختيارى باختيارى ورضيت باختيار الله وأسلمت ناصيتى لربى فسقطت عنى المؤاخذة وحقت لى المودة.. وذلك هو الإسلام الكامل .. إسلام « الأنا » لخالقها يقلبها فى الأحوال كيف يشاء .
سقطت كل الدعاوى وعدت إلى المبتدأ .. إلى الفطرة والبكارة الأولى .. حيث ماثم إلا هو .. وذلك مقام الفناء عند أهل الأشواق .
وهو حظ الأفراد الكمل والأنبياء والصديقين والأبرار يعيشونه طوال الوقت ، أما نحن فحظنا من هذا المقام لحظة .
حظنا .. شميم .. ووقفة على العتبات ذات صباح .
يقول العارف الكامل محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفرى :
بداية الوقفة ألا يكون هناك « سوى » لتكون عنده وقفة . فأنت لا تعود ترى إلا الله حيثما توجهت .

﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾
(البقرة : الآية ١١٥)

لا شىء سوى الله .
على اتساع الوجود .. لا موجود بحق إلا هو .. وإنما وجودنا مستعار منه ومقترض من وجوده وموهوب من فضله .
ومن يؤتى هذا الإحساس تكون حياته كلها سكر وعذابه كله شكر .
يقول مولانا الشاذلى لربه مبتهلا :
« خذنى إليك منى وارزقنى الفناء عنى .. ولا تجعلنى محجوبا بحسى مفتونا بنفسى » .

إنه يريد أن يستحضر تلك اللحظات على الدوام ويعيش فى هذا القرب طوال حياته .. وهيهات .. فهذا مقام لا ينال بالتمنى .. ولا يبلغه إلا آحاد .. هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى .. وصنعهم الله على عينه .

ومن يتذوق تلك اللحظات يشتاقها ويتشممها ويتحسسها من وراء الحجب والأسباب والمظاهر ويراها فى النعيم وفى العذاب وفى العطاء وفى الحرمان .

ويقول هذا العارف المشتاق :

ولولا سطوع الغيب فى كل مظهر

لأحرقنى شوقى وأهلكنى وجدى

فهو يرى ذات الحق تسطع من وراء الحجب والمظاهر تبدو له فى كل شيء فى ابتسامة الوليد وفى تفتح البرعم وفى طلعة الفجر ، وفى حمرة الشفق ، وفى زرقة البحر ، وفى عطر الورود ، وفى العطاء ، وفى الحرمان ، وفى البلاء ، وفى النعيم .

وهو يقرأ مشيئة الله تعالى فى الحوادث ويفض شفرة إرادته فى مجريات التاريخ .

والعارفون الكمل كالأطفال الأطهار يحيون فى انبهار دائم طوال الوقت ويقولون : نحن فى سعادة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف .

وهى ليست سعادة السلبية والعزلة والانقطاع بل هى سعادة إيجابية فاعلة ، فالكاملون منهم مثل سيدى أبو الحسن الشاذلى وعبدالقادر الجزائرى ونجم الدين كبرى حاربوا الصليبيين والتتار وقاتلوا الاستعمار فى الشمال الإفريقى وفى السودان وتصدوا للباطل حيث كان ولم يركنوا للعزلة ولا للتواكل .

وكان نجم الدين كبرى يقذف بالحجارة التتار الذين يرمونه بالنبل .. وهو يترنم فى نشوة هاتفا : اقتلنى بالوصال أو بالفراق.. حتى سقط فى بركة من دمه ولفظ أنفاسه .

فلم يكن يبالى على أى وجه كان فى الله مقتله فهو المحب المشتاق فى جميع الأحوال .

وهؤلاء هم الأكابر الأفراد .. حظنا منهم لحظة .. وشميم حال.. وذكرى عطرة .. وتلك هى صرافة التوحيد وترنيمة لا إله إلا الله.. تجدها شذرات متفرقة فى الإنجيل وفى التوراة وفى نشيد اخناتون وفى كتاب الموتى .. وتجدها مستخلصة مجموعة مكثفة عميقة هائلة فى القرآن وكأنما هى معزوفة سماوية أو سيمفونية علوية قدسية تترنم بها السطور والآيات .

وفى بحار ابن عربى وأبو حامد الغزالى وابن الفارض وابن عطاء الله تجد سكارى التوحيد من الأكابر الذين سجدوا فسجدت قلوبهم فلم ترتفع من سجدتها حتى لفظوا أنفاسهم .. جعلنا الله منهم وختم لنا بالسلامة ببركتهم إنه سميع مجيب .

التجلى الآخر

وقد يعتب على الأصدقاء الخلصاء ويقولون لى كيف تترك نفسك لتغيب فى السكر والوصال الصوفى وقد عهدناك صاحيا لدرجة الصراخ .

وأقول لهم : إنما أسكر لأصحو وأفيق وأستجمع نفسى وأحتشد لألتحم من جديد بهذا العالم وأصرخ فالواقع الذى نعيشه أمر من أن نصارعه فرادى .. إنما نصارعه بالله .. وبدون الله لا أمل .

وكان نبينا يقول لربه : بك أحيا وبك أموت وبك أصول وبك أجول ولا فخر لى .

وقد حاول جبابرة روسيا لينين وستالين وغيرهما أن ينهضوا بروسيا بدون الله وبدون دين فسقطوا بها وسقطوا معها إلى الهاوية .

ومثل تجلى الله البديع والجميل فى سماواته والذى ذكرناه فى وقفة البحر .. كان تجلى الرحيم والرحمن والناصر والجبار والمنتقم فى غزوة بدر على قلة من المسلمين بلا عدة وبلا عدد فانتصروا على كثرة مسلحين بالعدة والعتاد .

﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** ﴾(آل عمران:الآية ١٢٣)

﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ (البقرة : الآية ٢١٤)

فتجلى عليهم الله بنصره .

ويأتى النصر فى الحالين على غير المألوف فتنتصر القلة على الكثرة وتنهزم العدة والعتاد أمام الفقر العسكرى والحربى .. حتى تكون حجة الله ملزمة وحتى لا يخرج من المنتصرين من يقول : إن الخطة والتكتيك والكر والفر هو الذى أتى بالنصر .. والله هو الفاعل دائما فى جميع الحالات ولكنه يتخفى بالأسباب .

وما شقت عصا موسى البحر ولا ابتلعت ما يلقى السحرة من أفاع وثعابين ولا فجرت عيون الماء من الصخر .. ولكن الله هو الفاعل من وراء الأسباب وتلك مشيئته وكلمته وإنما أخفى إرادته فى أسبابه .

وإنما يكون التجلى أحيانا باهرا ساحرا وخالبا للألباب لينقطع الشك وما السيول والأعاصير والزلازل والبراكين والصواعق إلا جند من جنود ربك : ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ .

ولا يقنط المؤمن ولا ييأس ولا يلقى سلاحه مهما تكاثر عليه الأعداء ومهما حاصرته الهموم .. لأنه يرى قدرة الله فى كل شىء.. ويرى البعوضة حاملة الملاريا مجندة ويرى الفيروس حامل الإيدز مجندا .. ويرى الإعصار مجندا .. والرصاصة مجندة.. ويرى مشيئة الله تفعل ولا سواها .

والصمود أمام المحال من صفات المؤمن لأنه يعلم أنه يصارع بيد الله لا بيده .. وهو لا يعرف الجبن ولا الخوف ولا الفرار .

ولهذا اقتضى الإيمان .. الابتلاء .. لأن الكلام سهل ولأن كل واحد يدعى أنه مؤمن وأنه مستحق للجنة .. وقد زعم الجبابرة أمام شعوبهم حتى لحظة موتهم ، أنهم كانوا يحسنون صنعا واعتقدوا أنهم يستحقون التمجيد والإشادة .. فلزم الابتلاء حتى يصحو كل واحد على حقيقته وحتى يعلم منزلته .. والله فى غير حاجة إلى الابتلاء فهو يعلم منازلنا منذ الأزل . ولكنا نحن الذين يلزمنا الابتلاء حتى نعرف أنفسنا واليوم استدار الزمان دورة كاملة ونوشك أن نقبل على معركة بدر أخرى ويتكاثر علينا الأعداء من خارجنا ومن أنفسنا ونتراجع حتى يصبح ظهرنا إلى الحائط.. ويجثم علينا مستقبل مظلم .. ونعود أحوج ما نكون إلى الإيمان الصحيح والمعرفة الصحيحة بالله .. فلا سلاح حقيقى إلا هو ولا حصن إلا حصنه .

وتتجمع النذر والبشارات فى الأفق .

فهل نحن فى مستوى الامتحان ؟

وهل نحن مؤمنون حقا ؟

هذا هو السؤال الذى سوف تجيب عنه السنوات العصيبة القادمة .

ماذا وراء
بوابة الموت

٨

المهمة
الغامضة

ماذا تريد منا الطبيعة ؟..

هل كل واحد منا جاء إلى هذه الدنيا بمهمة .. وتكليف .. ورسالة عليه أن يؤديها ؟

هل الميلاد والنزول على هذه الأرض .. كان له سبب وغاية ؟

فى بريدى كل يوم أسئلة حائرة من هذا اللون .

لماذا خلقنا .

لماذا جئنا إلى هذه الدنيا ؟

ماذا يراد بنا أن نفعل ؟

هل لوجودنا حكمة وسبب وغاية ؟ أم أننا خلقنا لنموت والمسألة كلها عبث وسخف كما نقرأ فى كتب فلاسفة العبث ، وكما نرى فى مسرح اللامعقول ؟ .

وهل دورنا فقط أن نواجه هذا السخف وبطولتنا أن نتمرد عليه ونتحداه كما يقول كامو ؟ بطولتنا أن نلعق جراحنا ونصرخ .. سنعيش برغم العذاب وبرغم الألم ، ونصطنع لأنفسنا وهما وحلما .

وهل تكون حياة تلك التى نبنيها على وهم ؟ .

سؤال خطير وكبير .

والإجابة القاطعة عليه تحتاج إلى الإحاطة الكاملة بعملية الحياة ، والإحاطة بالزمن كله .. وما دار فيه من مبدئه فى

الماضي السحيق إلى منتهاه في المستقبل .. في الآخرة بعد عمر طويل .

لكي تعرف لماذا قامت الحرب .. وما دورها .. لابد أن يكون لديك علم كامل بما كان يجرى قبل هذه الحرب .. وما جرى أثناءها .. وما جرى بعدها .. أما إذا كنت جنديا بسيطا في الكتيبة تتلقى أمرا وتنفذه ثم تموت فلن تكون حياتك أكثر من لحظة في هذه الحرب .. ولن تستشرف من مكانك رؤية تعرف منها القصة كلها بخباياها وأسرارها .

إن العلم عند القائد .. عند الخالق الذي بعث بك إلى الصفوف الأولى .. وزودك بذخيرة العمر المحدودة من ستين طلقة في ستين سنة هي كل عمرك.

الخطة كلها في رأسه .. أنت بند واحد في الخطة .. أنت ورقة في الدوسيه .

سطر .

كلمة .

حرف .. في كتاب رائع لا نهائي اسمه الدنيا .

ولن يستطيع الحرف أن يدرك الغاية من وجوده إلا إذا أدرك الدور الذي يقوم به في السطر الذي يشترك في حروفه .. وإلا إذا أدرك المعنى الذي يدل عليه السطر في داخل المقال .. والمقال في داخل الكتاب .

لابد أن يكون عمرك هو عمر الأبد لتحضر رواية الحياة بكل فصولها وتعرف الحكاية .

أما وأنت حالك حال ممثل في مسلسلة إذاعية يطلق عليه الرصاص في الحلقة الأولى ويموت .. فإن طلبه معرفة معنى

حياته .. يكون طلبا يتجاوز فيه حدوده .. ويطلب فيه المستحيل .. الجواب اليقين فى هذا السؤال إذن غير ممكن .

وكل مانستطيع أن نفعله هو أن نحدس .

ونخمن .. ونشطح بذهننا .

وأنا أحاول دائما أن أقرأ الإجابة .. لا من كتاب ولا من نظرية.. ولا من عقيدة .

ولكنى أحاول أن أقرأ الإجابة من التاريخ نفسه .. من حكاية التطور .. من استقراء الطبيعة مباشرة .

أنا أحاول أن أفهم ماذا تريد الحياة بنباتاتها وحيواناتها وماذا فعلت بهذه المخلوقات على مر العصور .

الحياة لها حكاية .

لقد بدأت بسيطة على شكل ميكروب .. خلية واحدة تقوم بكل الوظائف .. تتنفس وتتغذى وتنمو وتتحرك بدون أجهزة متخصصة.

ثم انقسمت الخلية إلى خليتين .. وكل خلية إلى خليتين وخرجت من الخلية الواحدة أعداد لا حصر لها من الخلايا .

ثم بدأت هذه الخلايا تتجمع في قبائل وقطعان تتحرك معا وتتعايش معا .. ثم تلاصقت هذه الأعداد .. لتؤلف مخلوقات مركبة عديدة الخلايا ذات أجهزة متخصصة .. أقسام من خلاياها للتنفس.. وأقسام للتغذى .. وأقسام للحركة.. وأقسام للإفراز .. ونشأ النبات والحيوان المتطور .

وبمضى الأجيال والأحقاب الطويلة .. نشأت فصائل من النبات والحيوان .. كل منها تكيفت مع بيئتها .. نباتات الصبار فى الصحارى اتخذت لنفسها أوراقا ، وسيقانا لتختزن فيها الماء ..

والحيوانات المائية اتخذت لها زعـانف لتسبح .. والحيونات البرية اتخذت لها أرجلا لتمشي .. والحـيوانات الجوية اتخذت لها أجنحة لتطير .

مرحلة بعـد مرحلة .. انتقلت الحـياة من الوحدة إلى التـعدد .. ومن البساطة إلى التركيب .. ثم مـزيد من التركيب .. وهو تركيب له غاية واضحة .. هو سيادة الحيوان على بيئته .. وسيطرته على ظروفه .. الأجنحة أعطت الطائر القدرة على ركوب الجو والزعانف منحت الأسماك القدرة على ركوب البحر .. والأرجل منحت الدواب القدرة على الدبيب على البر .

وحينمـا ظهر الإنسان استطاع عـن طريق عقله أن يقفز قـفزة واسعـة .. فهـو لم ينتظر مليـون سنة لتنمو له أجنحـة يطير بـها وزعـانف يسبح بهـا .. وإنمـا اختـرع الأدوات .. اخـترع العـربة والباخرة والطـائرة والغواصة والصاروخ .. وهى أعـضاء جديدة حديدية أضافها إلى بنيـانه وانطلق يغزو بها الكون .. ولكنه مازال يجرى فى نفس الخط الذى كان يسير فيه الميكروب .. من الوحدة إلى التعدد « من الفرد إلى المجتمع » ومن البساطة إلى التركيب .. ومن التركيب إلى مـزيد من التركيب « الاختراعـات والقوى الآلية التى تزداد تركيبـا وتعقيدا يوما بعد يوم .. وبالحيـاة المدنية التى يعيشـها والتى يتعـقد فيها كل شىء بشكل مطرد .. من الكساء إلى الغذاء إلى الدواء إلى المعاملات والتنظيمات الخ .. الخ»

ومرة أخرى كان هذا التعـقد يهدف إلى نفس الغاية التى هدف إليها المـيكروب فى تطوره .. كان يهدف إلى السيطرة على البـيئة والسيادة على الظروف .. إلى ركوب الطبيعة واستغلالها وقيادتها بدلا من الخضوع للطبيعة والانقياد لها والتقيد بأغلالها .

كان يهدف إلى القوة والقدرة والمعرفة والوعى والحرية ويكافح فى سبيل الاستمرار والبقاء وهزيمة الموت : وفى سبيل أن يكون الإنسان هو السيد .. هو القدر .

ونحن حينما نبنى سدا عاليا ننظم به ماء النيل .. نحن نسير فى خط التطور ...وفق الغايات العليا المكتوبة فى سفر الحياة : وهى أن نسود الطبيعة وننظمها ونستغلها ونخط قدرنا وقسمتنا بأنفسنا .

الحياة إذن فيها غاية .

وهى برغم الموت .. وبرغم الألم والمرض والشيخوخة والشر والعبث .. برغم كل هذا تبدو متماسكة متصلة الحلقات منطلقة إلى غايتها مكرسة فيها الزمن كلها والخليقة كلها جيلا بعد جيل .

هناك مهمة ورسالة وتكليف .. كل منا ينزل إلى الأرض وفى عنقه هذا التكليف .. أن يضيف طوبة جديدة إلى القلعة الحصينة التى بنتها الحياة لتتحصن فيها وتقود منها التاريخ وتسوس الكون والطبيعة لصالحها .

ونحن مزودون من أجل هذه المهمة بجميع الأدوات الضرورية بالعقل والإرادة والإصرار ، ومزودون بتراث من العلوم والمعارف والخبرات .

نحن الوارثون لكل هذه المعارف لكى نضيف إليها .. ويضيف الذين يأتون بعدنا فى سعى متصل .. لا يعنى فيه الموت شيئا .. ولا يؤدى إلى أى انقطاع .. وكأنما الإنسانية كلها .. والحياة كلها مخلوق واحد .

حتى الجماد كان له فى سفر التطور شأن مماثل .. فقد خضع لنفس الناموس .. فمن ذرة الأيدروجين البسيطة المؤلفة من

الكترون واحد وبروتون واحد .. من هذه الوحدات الأولية .. وبدخولها فى علاقات .. نشأت ذرات أكثر تركيبا .. وأكثر تعقيدا.. مرة أخرى .. انتقال من البساطة إلى التركيب ومن الوحدة إلى التعدد حتى نصل إلى ذرة اليورانيوم وهى ذرة ثقيلة نشطة ترسل إشعاعا .

ومن ذرة الكربون القلقة المتعطشة إلى الاتحاد بالذرات الأخرى نشأت سلاسل المواد الهيدروكربونية وهى مواد أكثر تراكبا وأكثر تعقدا ، جتى نصل إلى جزىء البروتين الحى فنصل إلى أكثر الوحدات المادية تعقدا وتراكبا وثقلا .

وهناك نظرية فلكية تقول : إن كل شىء نشأ من النور من هذه المادة اللطيفة المفرطة فى البساطة .. هذا الإشعاع المؤلف من فتافيت مادية مفرطة فى الصغر .. اسمها الفوتونات .. هذه الوحدات التى هى أصغر وحدات الكون وأسرعها حركة وأبسطها تكوينا فتافيت أشعة جاما .. وبيتا والأشعة الكونية .. هذه الوحدات التقت فى فضاء الكون الشاسع فى مكان ما ونشأت منها تواليف هى التى أنتجت فيما بعد الألكترون والبروتون .. ومن الألكترون والبروتون تكونت ذرة الايدروجين .. ثم سائر الذرات .. إلخ .. من البساطة إلى التركيب ثم إلى مزيد من التركيب.

هناك خط سير إذن .

الحياةليست خبط عشواء .. ولا مصادفات ولا عبث .

والكون ليس حركة بلا وجهة .

وإنما حركة ذات وجهة .

المادة تتطور فى خط سير واضح من الوحدة إلى التعدد ..

ومن البساطة إلى التركيب . ومن العجز إلى القدرة .. ومن العماء إلى الرؤية . ومن الخضوع للطبيعة إلى السيادة على الطبيعة .. وإخضاع الطبيعة .. ومن الظلام إلى النور ومن الجهل إلى المعرفة .

وقد يعود السائل فيسأل مرة أخرى .

ولماذا تكون هناك حياة من الأصل ، ولماذا يكون هناك أى اتجاه إلى السيادة على الطبيعة .

ألا يكفى أن تكون هناك طبيعة .. ما الداعى لأن تعى الطبيعة نفسها .. وتقود نفسها بنفسها .

والجواب أنها بهذا تحقق الحرية.

بالمعرفة والوعى والقوة والسيادة يكتشف الإنسان نفسه ويمتلك كنوز عقله .. ويسيطر على الطبيعة حوله ويحقق حريته ووجوده ويعرف نفسه ويعرف ربه ويبلغ السعادة .. والسعادة لا تبحث لنفسها عن سبب .. فهى دائما غاية ذاتها .

ويعود السائل فيقول إن هذا الكلام يفسر لنا التطور والتاريخ واتجاه الطبيعة فى سيرها .. ولكنه لا يفسر وجودها لماذا وجدت من الأصل .

لماذا يكون هناك امتلاء ولا يكون هناك خلاء ، لماذا وجود لا عدم ؟

والعقاد رحمه الله له رد على هذه المعضلة . فهو يقول بأسلوبه المنطقى .. إن العدم معدوم فلا وجه للقول بوجوده أو مناقشة وجوده .

ومادام العدم معدوما فالوجود امتلاء صرف لا نهاية له ولا آخر ولا حدود .. لأن الوجود لا يمكن أن يحده سوى العدم والعدم معدوم .

فــالوجود إذن لا مـبدأ له ولا منـتهى .. ولا يصح السـؤال عن متى خلق .. ولم خلق .. فـهو أبدى فى الزمان ، ولم يكن مـعدوما ليقـال .. متى خلق .. وهى حجج منطـقية ترضى العـقل .. ولكنها لا تشبع الـشعور الذى يعـانى الموت .. ويحس بدبيـب العدم فى زحف الشيخوخة على الأوصال .

إن السؤال يفرض نفسه برغم لا معقوليته ويلح على الحواس .

ولم كان كل هذا .

وما الحكاية .. وما القصة .

ولم بدأت .. مادام مصيرها أن تنتهى .

هناك سر .

هناك ثغرة .. فى هذا البناء المنطقى الذى بنته لنا الفلسفة .

إن كل حجج الفلسفة تنهار أمام ضـربات الموت وكأنها خيوط عنكبـوت .. وكأنها كـلام .. مجـرد كلام .. لا يشفـى ولا يشبع .. ولا يزن شيئا أمام واقع مر أليم شاخص أمام الحواس .

هذا البناء المتهاوى من المنـطق لا يمسك نفسه .. وهو يكشف عن قصوره .

هناك سر .

وأنا اعتقد أن هناك أسـرارا لا سرا واحدا . وأن علمنا لا يغطى كل شيء وأن عمرنا المحدود لا يمـكن أن يعطى إلا لمحة مجدودة من الحـقيـقة .. وإننـا نحن جنود الكتيـبـة التى اسمـها « القـرن العشـرين» موفدون فــى مهمــة محدودة تنتــهى بنهاية عـمرنا .. ولا يمكن أن نعرف خبايا الخطة كلها .. فالخطة فى رأس القائد .. الخـالق .. ونحن مـجرد بند فـى الخطة .. ورقة فـى الدوسيـه .. حرف .. ولا يمكن لنا أن نحيط بالحقيقة .

الحقيقة لا تدركها إلا عين تنظر من ربوة الأبدية على الزمن كله.

كل ما أستطيع معرفته هو أن هذه الحياة ليست عبثا ولا سخفا.. وإنما هى نظام محكم له غايات .. وأننا نسير كالجيش.. لنا مسيرة .. ولنا مخطط وأنا لا أعرف المخطط كله .. وإنما أعرف القليل جدا .

ولكن على مرور الزمن اللانهائى .. تكتشف الحياة طريقها .. وتزداد معرفتها قليلا بقليل .. فيعرف أحفادى ما لم أعرف أنا .. ويتصل مجرى العلم الذى لا يبدو أنه ينقطع أبدا بموت أحد .. وإنما هو يستمر يحفر طريقه فى الظلمة .

ولا يوهن من عزمى أنى موفد فى هذا الطريق فى بعثة غامضة.. ومهمة غير مفهومة .. فمنتهى شرفى أنى فعلت كل ما أستطيع .

وإذا كان كل ما وصلت إليه أن هدف هذه الرحلة هو التكامل .. تكامل القوة .. وتكامل الحس .. وتكامل السمع .. وتكامل البصر .. وتكامل العقل .. وصولا بذلك إلى معرفة الإنسان لنفسه وإدراكه لربه ومن ثم عبادته .. فإن جلال هذه الأهداف وعظمة هذه الغايات هى مبرر كاف لمشقة الطريق .

وهل بعد الله هدف .. ؟؟!!

وهل بعد الله سؤال .. ؟؟!!

كلام فى الحب

الحب والهوى والغرام خداع ألوان، ما نراه فى المحبوبة مثلما نراه فى قوس قزح، جمال ألوان قوس قزح ليس من قوس قزح نفسه ولكنه من فعل نور الشمس على رذاذ المطر المعلق فى الهواء.. فإذا غابت الشمس وجف المطر اختفت الألوان وذهب الجمال.

وهكذا محبوبتك جمالها فيما يتجلى عليها من خالقها.. فإذا انقطع عنها التجلى شاخت ومرضت وذبلت وعادت قبحا لا جاذبية فيها.. إن ما كانت تملكه من جمال لم يكن ملكا لها بالأصالة، بل كان قرضا وسلفة.

حتى السجايا الحلوة والنفوس العذبة والخلال الكريمة هى بعض ما يتجلى فينا من أسماء خالقنا الكريم الحليم الودود الرءوف الغفور الرحيم.

أليست هذه أسماؤه..!؟

وهل نحب حينما نحب إلا أسماءه حيثما تحققت وأينما تحققت.

وهل نحب حينما نحب سوى حضرته الإلهية فى كل صورة من صورها.

والحكيم العارف من أدرك هذه الحقيقة فاتجه بحبه إلى الأصل إلى ربه ولم يلتفت إلى الوسائط ولم يدع بهرج الألوان يعطله.. ولم يقف عند الأشخاص.. فهو من أهل العزائم لا تعلق له إلا بربه.. لقد وفر على نفسه خيبة الأمل وانقطاع الرجاء وخداع الألوان.

لقد أحب من لا يهجر، وعشق من لا يفتر، وتعلق بمن لا يغيب، وارتبط بمن لا يموت، وصاحب من بيده الأمر كله وساهم فى البنك المركزى الذى يخرج منه النقد جميعه.. وهام بالودود حقا ذاتا وصفاتا وأفعالا..

وذلك هو مذهب العارفين فى الحب.

فهل عرفت.

وإذا كنت عرفت.. فهل أنت بمستطيع.

وليس كل عارف بمستطيع.

ومذهب العارفين ليس مجرد معرفة.. ولكنه همة واقتدار وكدح ومغالبة.. والنفس لا تستطيع أن تعشق إلا ما ترى ولا أن تتعلق إلا بما تشهد بصرا وسمعا وحواسا.

أما تعلق الفؤاد بالذى ليس كمثله شىء فمرتبة عليا لا يوصل إليها إلا بالكدح والكفاح والهمة.. وقبل ذلك كله.. بالتوفيق والرضا من صاحب الأمر كله.

ولهذا أدرك العارفون أن هذا أمرا لا يمكن الوصول إليه إلا ركوعا وسجودا وابتهالا وعبادة وطاعة وخضوعا وخشوعا وتذللا وتجردا وإن هذه مرتبة لا تنال بشهادة جامعية ولا بماجستير أو دكتوراه، أو تحصيل عقلى.. ولكنها منزلة رفيعة لا مدخل إليها إلا بالاخلاص وسلامة القلب وطهارة اليد والقدم والعين والأذن ولا سبيل إليها إلا بخلع النعلين.

تخلع جسدك ونفسك.

وليس مقصود القوم هنا هو الزهد الفارغ والتبطل.. وإنما أن تخلع حظك وأنانيتك وشهوتك وطمعك وشخصانيتك، وأن ترتد إلى الطهارة الأولى اللاشخصانية التى تعطى فيها وتحب دون نظر إلى حظ شخصى أو عائد ذاتى.. فهى حالة عمل وعطاء وبذل وليس حالة زهد فارغ وتبطل. وهى فى ذروتها حالة فداء وتضحية فى

سبيل إعلاء كلمة الله.. تضحية لا تنتظر إلى نيشان أو نصب تذكارى. ولكنها تبذل المال والدم والنفس لوجه الله وحده.

ويقول العارفون إن مائدة الاستشهاد هى أعلى موائد التكريم ولا دخول إليها إلا ببطاقة دعوة من صاحبها. ولا دخول إليها اقتحاما أو قهرا وتبجحا.. وإنما هى دعوة من الكريم يتلقاها صاحب الحظ بالتلبية والهرولة ويتلقاها المحروم بالتكاسل والتخاذل.. والتخلف.

ذلك هو الحب فى مذهب القوم وهو غير الحب فى مذهب بعض منتجى أفلام السينما ومؤلفى الرومانتيكيات، وهو أيضا غير الحب عند كثيرين من الناس. حيث الحب هوى ونار وشهوة ولحظات تتألق بالشعر ثم ما تلبث أن تخبو وتنطفىء وتترك رمادا من الأكاذيب.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف : الآية ٢١)

﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ (العنكبوت : الآية ٦٣)

﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ (لأنعام : الآية ١١٦)

﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظنا﴾ (يونس : الآية ٣٦)

﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ (النجم :الآية ٢٣)

﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾ (الفرقان : الآية ٤٤)

هكذا يعلمنا القرآن أن الكثرة لا تعرف أما العارفون فقليل ما هم ولكن الصحافة التى تخاطب الكثرة والسينما التى تتملق الجماهير والمؤلفين الذين يطمعون فى الرواج والشعراء الذين يتبعهم الغاوون يتغنون بألوان أخرى من الحب. ويتيهون معها فى أودية الغفلة التى تنتهى بنا إلى جنون قيس وانتحار جوليت وسقوط راهب تاييس ومباذل فالنتينو وجرائم آل كابونى وموائد مونت كارلو.

وهو أمر قديم قدم التاريخ منذ أيام بابل، ومنذ أيام أنطونيو

وكليوباترة ومنذ أيام الفراعنة والإغريق والرومان.. ونقرأ فى كتاب الموتى هذه السطور التى كتبها الحكيم المصرى منذ خمسة آلاف عام.

لا تنظر إلى امرأة جارك فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك.. إنها لحظة قصيرة كالحلم والندم يتبعها، إنها معارف قديمة منذ أيام آدم. وقصة بائدة منذ مقتل هابيل.

ولكن لا أحد يذكر.. ولا أحد يعتبر.. ولا أحد يتعلم من الدرس.

وأكثر الذين يعرفون لا تنفعهم معرفتهم بسبب ضعف الهمم وتخاذل الأنفس وغلبة الشهوات.

إن السلالم إلى الأدوار العليا موجودة طول الوقت، ولكن لا أحد يكلف نفسه بصعود الدرج والأغلبية تعيش وتموت فى البدروم.

ولو كلف أحد منهم نفسه بالصعود.. وتحمل مشقة الصعود وشاهد المنظر من فوق، لبكى ندما على عمر عاشه فى البدروم بين لذات لا تساوى شيئا ولكنه الضعف الذى ينخر فى الأبدان.

والبشرية تسير من الضعيف إلى الأضعف، والأجيال الجديدة أكثر ضعفا وأكثر تهافتا على العاجل البائد من اللذات، واقرأ المقال من أوله واسأل نفسك. من أى مرتبة من البشر أنت. هل أنت عارف؟ وإذا كنت عارفا. فهل أنت بمستطيع؟

وابك ما شئت من البكاء فلا شىء يستحق أن تبكيه. لافقرك ولافشلك ولا تخلفك ولا مرضك.. فكل هذا يمكن تداركه أما الخطيئة التى تستحق أن تبكيها فهى خطيئة البعد عن إلهك.

فإن ضيعت إلهك.. فلا شىء سوف يعوضك.

وكل أحلام الشعراء لن تغنيك شيئا.

مـــاذا وراء

بوابة الموت

١٠

يوجـــا

سعيت وراء علماء التشريح لأعرف ما هو الإنسان.. سرت وراء المشرط وهو ينقب فى الأحشاء والمصارين واللحم والعظم.. وهو يفتح القلب ويتتبع الأعصاب حتى نهايتها.. وهو يقطع المخ نصفين، ثم يقطع كل نصف إلى نصفين.

وبعد ثلاثة آلاف صفحة من كتب التشريح لم أصل إلى شىء وكأنما فتحت حقيبة فوجدت داخلها حقيبة ثم حقيبة، وفى نهاية المطاف اكتشفت أنى مازلت واقفا فى مكانى أدق على الباب نفسه من الخارج، لم ألج إلى الداخل قط.

كنت طول الوقت اتحسس كسوة ذلك الإنسان لأكتشف أن القناع الذى يحجبه ليس ثيابه وحدها.. وإنما جلده ثوب آخر.. ولحمه وشحمه وعظامه كلها ثياب.. أما هو نفسه فبعيد.. بعيد.. تحت هذه الأقمشة السميكة من اللحم والدم.

قالت لى كتب التشريح إن الإنسان مجموعة من الأحشاء فى قرطاس من الجلد.

ولكنها لم تصف لى الإنسان على الإطلاق.

وإنما وصفت ثيابه أما قلبه، أما عواطفه، فإنها ليست فى تلك الكتب.. إنها فينا نحن الأحياء.. إنها الزامر الذى ينفخ من الداخل فى ذلك البوق الجسدى الذى يتألف من الفم واللسان والشفتين

واليدين والرجلين فتنطق وتتحرك كأنما هى دمى خشبية تحركها خيوط خفية من وراء خباء.

إنها الـعاطفة.. الإرادة.. الـروح.. النفس.. الـ أنا... سمـها كـما تشاء.. ولكنهـا دائما غاية فى الوحدة والبســاطة.. وراء هذا العديد المتعدد من الأعضــاء هناك وحدة هناك دائما واحد فقط يتكلم من داخل المـعـمار الجـسـدى المـعقـد التـركـيب المـتعـدد النوافـذ والشــرفـات.. واحـد فـقط بالرغم مـن هذه الألوف المـؤلفـة من الأنسجة والملايين بلا عدد من الخلايا.

فإذا نظرت إلى الطبـيعة حـولك بما فيـها من إنسان وحـيوان ونبات لمـست مرة أخرى نوعـا ثانيا من الوحـدة.. فهذا الشـتيت المختلف من أشكال الحياة يخفى وراءه وحدة.

وأنت والشجرة تتألفان من المـواد ذاتها.. كربون وماء وأملاح معدنيـة.. وكلاكما يتـحول بالاحتراق إلى فحم وكـل أنواع الحياة تنهدم بالموت فتستحيل إلى تراب.

أكـثر من هذا، يقـول لك الفلكى : إن هذا التـراب يحتـوى على المواد نفسها التى تتـركب منها الشمس والنجوم والكواكب.. وإنك مـهمـا أوغلت فى السمـاء بين النجـوم تجد دائمـا الشىء نفســه. والمواد ذاتها.. كل العالم من مـادة واحدة أولية لا يمكن أن تكون كل هذه مـصـادفـات وإنما هى أصـبع تشـير إلى أن هناك وحـدة نسـيج فـى هذا الكون المـتسـع العظيم وأنه بالرغم مـن الكثـرة الظاهرة والتعـدد والاختلاف فى الأشـياء فإنهـا فى الواقع ليست مختلفة.. وإنما هى مجرد عمائر وتراكيب مختلفة لشىء واحد.

كـما تظهـر الطاقة مـرة على شكل كـهرباء. ومـرة على شكل حرارة.. ومرة على شكل ضوء. ومرة على شكل مغناطيسية وهى

دائما الشـىء الواحد ذاته.

الوحدة.. هذا هو موضوع اليوجا.

والمـعنى الحـرفى لكلمـة يوجـا بالهندية هو الاتحـاد وإدراك الوحدة فى الأشياء.

أنت وأنا وهو وهم شىء واحد.

هل تستطيع أن تدرك هذه الوحدة؟

علوم اليوجا تقول إنك لا تستطيع أن تدركها إلا إذا تحررت من تقاليدك.. وأخـضعت جسدك وعواطفك وغرائزك وعـقلك تماما إذا أردت أن تسمع صوت الواحـد فى داخلك فلابد من إسكات صوت المتـعدد أولا.. لابد من إسكات صـوت الجسد والنـفس والغريزة والرغبة والعقل.

وإخضـاع الجسد تختص به علوم «الهاتايوجا» وهى التمرينات الرياضية المعروفة.

وإخضـاع العقل تخـتص به علوم «الراجايوجا».. وهى تمرينات على التأمل والتركيز.

وإذا اسـتطعت إسكات كل شىء فـسـوف تسـمع من أعـمـاق الصمت فى داخلك صوت الواحد.

سوف تشـعر بالقـرابة الحمـيمـة بينك وبين الأشيـاء.. سوف يعـزف فى داخلك لحن الانـسجـام بيـنك وبين العـالم.. إذ تدرك التـوافق العـميق بيـن عناصرك وعنـاصره.. وتسـودك طمـأنينة قدسـية فـلم يعد هناك داع للتـعجل.. مـا يفوتك باليـميـن سوف تحصـل عليه باليـسار وفى الهند يسـمون هذا الواحـد «اتمان» .. وفى «صلاة هندية قديمة لهذا الواحد يقول الشعر السنسكريتى :

إذا ظن القاتل أنه قاتل

والمقتول أنه قتيل
فليسا يدريان ما خفى من أساليبى.
حيث أكون الصدر لمن يموت والسلاح لمن يقتل
والجناح لمن يطير
وحيث أكون لمن يشك فى وجودى
كل شىء حتى الشك نفسه.
وحيث أكون أنا الواحد وأنا الأشياء.

وكأنما شـعر جميع المفكرين بهذا الواحـد الخفى. وحاول كل منهم أن يعـبر عنه بطريقـته.. فى فلسفـة شوبنهـور كان اسـمه «الإرادة». وفى فلسفة نيتشه كان اسمه «القوة» وفى فلسفة هيجل «المطلق» وفى فلسـفة مـاركس «المادة» وفى فلسـفة برجـسون «الطاقة الحية» وفى الأديان السماوية اسمه الله.

اتفقت جميع الأصابع التى تشير إلى أن هناك شيئا داخل خباء ذلك الكون يحرك خيوطه.. وكل الخلاف هو خلاف أسماء.

ولهـذا تقول علوم الـيوجـا.. لا تحاول أن تـسمى مـا لا يمكن تسميته.. تأمل.. لا تنطق بحرف.

عليك بالإصـغاء إلى صوت الصـمت.. ثم جاء الإسـلام بأجمل وأصـدق تعــريف بذلك الذى وراء الصـــمت.. لم يخلط الـخـالق بالمخلوق كـما خلطت اليوجا الهندية كل شىء فـى وحدة الوجود فـجعلت من القـاتل والقتـيل والسكين شـيئـا واحدا تضـيع معـه المسئـولية ويضيع الجزاء فى ضـباب الشـعر.. وإنمـا قدم القرآن أنقى صـور التـوحـيـد وأرقى صـورة لوحـدة الخـالق ووحـدة المخلوقات.. فتوحدها لأنها منه.. أما هو فـمتعال عليها.. سبحانه.. ليس كمثله شىء.

السم والترياق

لكل شىء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد
الله خلق لكل شىء آفته التى تعتدى عليه.
خلق القطن وخلق دودة القطن.
خلق النبات وخلق الجراد.
خلق الأسنان وخلق السوس.
خلق العين وخلق الرمد.
خلق الأنف وخلق الزكام.
خلق الثمرة وخلق العفن.

خلق الإنسان وخلق معه جيشا من الأعداء لاغتياله : من بعوض، وديدان، وبلهارسيا، وميكروبات، وسل وجذام، وتيفود، وكوليرا. وخلق الحياة وخلق الحر والبرد، والصقيع ورياح السموم لم يرد بالدنيا أن تكون دار سلام.. وإنما دار حرب وصراع وبلاء وشد وجذب وكر وفر.

لأنه علم بحكمته أن حياتنا الدنيوية إذا أخلدت إلى الراحة والأمن والدعة والسلام ترهلت وضعفت وانقرضت.

وعلم الفسيولوجيا يقول لك إن سم الميكروب يحفز النسيج إلى الاحتشاد.. كما تدفع لسعة البرد الدم إلى الشرايين.

إن العدوان المستمر الذى جعلته الطبيعة شريعتها فى الأرض أراده الله لمخلوقاته تحديا مستمرا.. ليشحذ كل مخلوق وسائله ويبدع ويبتكر ويحتشد ويخرج أحسن ما يختزن من طاقات، ويكون دائما على أكمل الصور الممكنة.

وبدون هذا التناقض والصراع والكفاح كان مصير الحياة إلى ضمور وتخاذل وتكاسل ثم انقراض تدريجى.. وكما خلق لنا الله المرض خلق لنا الدواء فى عشب ينمو تحت أقدامنا.. وفى شراب

فى الينابيـع التى تتـفـجر حـولنا فـى كل مكان.. وفى العناصـر الكثيرة تحت الأرض وفوقها.. وأمدنا بالعقل الذى يبحث وينقب.

وللحكمة ذاتها ألقى الله وسط الدول العربية المتخاذلة المترهلة بعدو شرس هو إسرائيل.. ومكن هذا الجسم الغريب ليكون حافزا إلى اليقظة والاحتشاد.

إسرائيل هى الميكروب.. هى التحـدى القائم فى الجسم العربى ليثبت حـيويته ويشحذ طاقـاته ويهب من نومه الطويل وبرغم كل ظواهر اليأس فأنا متـفائل شديد الثقة بالمستـقبل فالسنن الكونية والقوانين الإلهية تعمل عملها فـى الكيان العربى ومانعيش فيه من كـارثة أراها على الـعكس مظهـرا من مظـاهر القـانون الأزلى لتصحيح الأشياء.. إن خلافاتنا الداخلية وانقساماتنا الداخلية أشبه بالصديد الذى يتخلف فى الجراح من جـراء التهاب النسيج بالسم الميكروبى والأجـسام المضـادة التى يفرزها. وهى مرحلة يليـها تدفق الدم من النسـيج المحـتقن ليـغسل كل شىء ثم يعـقب ذلك الالتئام والشفاء.

إن ألذى يجعل من واقعنا الحالى سببا لليأس لا يفهم الدنيا ولا يفهم التاريخ.

لقد تقاتلت الأمة الأمريكية قبل أن تتوحد فى حرب شرسة بين شمالها وجنوبها.. وكذلك الصين.. فلم يقل أحد إنها انتهت، أو إنها كتبت وثيقة فنائها.. بل العكس هو مـا حدث.. فقد كتبت بهذا الدم ميلادها.

وفى الحساب الأزلى للأرباح والخسائر.. وفى سجل التاريخ.. لا تضـيع نقطة دم واحدة.. ولا تهـدر ضحـية.. وإنمـا لكل شىء دوره فى صياغة النصر النهائى.

والنصر دائما للحق والخير.

ماذا وراء

بوابة الموت

١١

آفـــاق

المستقبل !

إن التاريخ يعلمنا درسا عظيما فى التواضع.. فمن الممكن أن ننقرض تماما ولا يبقى لجنسنا أثر.. وتتطور وتسود الحياة أجناس أخرى يخرج لها أحفاد وارثون عقلاء، وربما يكون السادة الجدد من نسل النمل أو النحل أو الصراصير.. ومن يدرى.. إن تاريخ الحياة يروى لنا حكاية سلالة عظيمة هائلة الحجم والقوة اسمها الديناصورات كان كل منها يمشى كأنه جبل يتحرك، وعاشت بدل السنة مائة مليون سنة تستمتع بهذه السيادة، ثم جاء العصر الجليدى فأهلكها لأنها لم تستطع التكيف.. لم تكن عندها وسيلة لرفع حرارة دمها سوى الجلوس فى الشمس.. وحينما طمر الجليد الأرض نفقت هذه السلالة الجهنمية كالكلاب.

ولم تترك أثرا لأنها لم تجد الشمس التى تتشمس فيها.

ونحن إلى الآن لم نعمر على الأرض مائة مليون سنة كما عمرت الديناصورات. وإنما عمرنا فقط مع التجاوز ومع ضم أقدميتنا القردية المزعومة عشرة ملايين سنة.. وقد تضخم عقلنا وذكاؤنا وتطورت أدواتنا. فأصبحت طائرات نفاثة وقنابل ذرية. فإذا لم نتقدم عاطفيا وإنسانيا بقدر ما تقدمنا عقليا.. إذا لم نستطع أن نكون محبين مشفقين رحماء بقدر ما نحن أقوياء، فسنهلك أنفسنا لا محالة.. ستهلكنا قوتنا نفسها فى حرب ذرية لا رحمة فيها.. ولن تأسى لنا الحياة.. فالحياة علمتنا أنها لا تعرف

الحزن ولا الندم وأن من يموت وينقـرض من أبنائها عندها مليون مليون من يخلفه. وعندها من الحيل ما يفوق الأساطير.

وحـينما نفنـى تحت وابل الدمار الذرى سـوف تهـيل الحيـاة التراب فوقنا، ثم يمضى ركبها العظيم يتطور فى اتجاه آخر ليلقى إلى الأبدية بمـحصـول جديد من الخـلائق، ولسان حـالها يـقول فلنجرب مـرة أخرى.. إننا لسنا فى عـجلة فأمامـنا زمن لا نهائى نجرب فيه أمامنا الأبد كله لقد تقدمنا علميا بدرجة ملأتنا بالغرور، فها نـحن نسافر إلى القمـر ونرسل السفن الفضائيـة إلى المريخ ونصور جـو الزهرة ولكننا لو تأملنا هذا التـقدم العلمى لـوجدناه يبعث عـلى الحزن أكثـر ممـا يبعث على الفـرح.. إن الإنسان الذى خطا ربع مليون ميل فى الفضاء إلى القـمر عجز عن خطوة طولها بضعة أمـتار ليعاون زملاء له يموتـون بالجوع فى الهند وآخرين يسحقـهم الظلم فى القدس وفيتنام . وأمريكا تلتـقى بروسيا على سطح القمر وتعجز عن أن تلتقى بها فى مجلس الأمن..

لقـد اقـتـربـت المـسـافـات بين الكـواكب والنجـوم وازدادت المسافات بين الناس على الأرض بعدا !

ها نحن نتبـاعد عن بعضنا أكـثر فاكثـر كل يوم وكأننا شظايا تتناثر فى الفـضاء ويعجـز الواحد منا أن يسـمع الآخر أو يوصل إليه رأيا أو يلقى له أذنا أو يفـتح له قلبا. لقد بدأ الإنســان يسيطر على الكون، ولكنه مـازال عاجزا عن السـيطرة على نفسـه! وبقدر ما ازدادت قوة ذراعيه بقدر ما نضبت الرحمة من قلبه.

إن إنسان القـرن العشرين شـمشون الجسـد قدم على الأرض وقدم عـلى القمـر ولكنه قزم الروح مـراهق العقل يمكن أن يـدمر نفسه فى غرور دون أن يدرى.

إن الخروج إلى الفضاء الذى يبدو فى الظاهر معجزة علمية هو فى الحقيقة عملية هروب نفسية من عجز الإنسان الروحى ومشكلاته المتفاقمة على الأرض وهى عملية هروب أنيقة ولا شك.. وهى تثبت أن الإنسان مخادع ومراوغ عبقرى يعرف كيف يغطى عجزه بأثواب مادية ساطعة البريق.

وما نراه الآن حولنا يدل على أن نمو القوى المادية أسهل بكثير من نمو المحبة فى القلوب، والارتفاع إلى القمر أسهل بكثير من ارتفاع الإنسان بأخلاقه ولو درجة واحدة.. إننا نرى قوة المادة وعجزها.

إن قوى الاقتصاد لا تستطيع أن تصنع لنا الإنسان الشريف النبيل مهما تحالفت بدولاراتها.. وإنما الأخلاق تنمو بالمجاهدة الشاقة بين القوى الروحية العميقة فى داخل الإنسان وبصراعه الدامى مع حوافز الحيوان ونداء المعدة وعواء الجنس وإغراء القوة، وهى أمور شديدة الصعوبة وتحتاج إلى درجات عالية من الإخلاص والصدق مع النفس والمواجهة اليومية والإلتحام مع عوامل الضعف وإلحاح اللذة والمكاسب السهلة فى كل لحظة.. وهى حرب شاقة تبدو إلى جوارها عملية الصعود إلى القمر.. عملية غاية فى السهولة لأن عملية الصعود إلى القمر تعتمدعلى النواميس الطبيعية.. أمثال الجاذبية.. وقوى الدفع الصاروخى، وطاقة احتراق الغازات وهى جميعها سنن وقوانين طبيعية وضعها الله فى ضبط وإحكام، وهى لا تخطىء أبدا لأن الله لا يخطىء فى حساباته.. أما علاقات الناس والسياسات الخارجية للدول فتعتمد على المصالح والأهواء والأطماع، وهى صناعة الإنسان التالفة ونتاج نفسه المعطوبة.

والهروب من تلك النفس وعطبهـا إلى فضاء الكون حيث يكون الاعتماد عـلى قوانين الله الدقيقة، هو الأمر المـأمون والسهل وهو أسـهل آلاف المرات من عـكوف الإنسان على نـفسـه ليـصلحهـا ويقومها.. ولـكنه فى ذات الوقت هروب من رسالة الإنسان الأولى على الأرض فـواجب الإنسان الأول على هذه الأرض.. أن يعـرف نفسه ويقومها بالفكر وبالدين وبالعلم معا يصنع الإنسان نفسه.. أما بالعلم المادى وحـده وبدون إيمان وبدون خلق فلن يصنع من نفـسه إلا جـبارا ومـسخـا عمـلاقا مـشوهـا يتنقل بين الكواكب ويختـرع أسلحة بشعـة رهيبة للقـتل الجماعى يدمـر بها الكل ثم يدمر بها نفسه دون أن يدرى.

وقد أختارت مدنية القـرن العشرين هذا الطريق السهل للتطور طريق الذرة والطاقـة والكهـرباء والـحديـد والصلب والديناميـت ونبذت البـاقى معـتذرة بأنه غيـبيـات، مع أن العلم المادى نفـسه غارق فى الغيبيات. فـما هى الكهرباء؟ وما هو الإلكترون؟ وما هى الطاقة؟ كلهـا غيبـيات، نحن نستخـدم الكهرباء ولا نعرف كنهـها ونصنع الأجهـزة الإلكترونية ولا نعرف مـا هو الإلكترون، ونطلق المـوجة اللاسلكيـة ولا نعرف مـا هى الموجـة اللاسلكيـة ولا ما شكلها.. الـعلم المادى لا يعرف مـا هية أى شىء إنه فـقط يعرف العلاقات والكمـيات والقوانين، ولكنه يجـهل ما هية أى شـىء.. إن حكاية الغيبيات هى العذر الكاذب الجاهز.

أما الحـقيـقة.. فـهى أن الإنسان قـد آثر الطريق السهل حـيث لا يحتاج إلى مواجهة نفسه والإلتـحام معها فى جهاد عظيم مرير فى سبيل إعادة خلقها.

آثر أن يلقى بنفسه فى البـيئة المادية محاولا تغـييرها بدلا من أن يبدأ من نقطة الأساس.

وهو يطمئن نفسـه بأنه إذا تغيرت البيـئة حوله فسوف تتـغير نفسه وتـسمو من تلقاء ذاتهـا.. إنها تجربة كبـرى سوف يجاوب عليها التـاريخ وسوف يكذبها بل لعله قد بدأ يجاوب بالفـعل.. فها نحن نرى فى الناحـية المادية أفـاق المستـقبل تبـدو كلها وردية مشـرقة. فـهاهو الإنسـان قد وصل إلى الـقمر.. أمـا فى الناحـية الإنسانيـة فإن آفاق المسـتقبل تبدو مـحفوفة بالظلال والمـخاطر والأشواك.

لقـد بدأ نهـار العلم وأخـشى أن أقـول.. بدأ ليـل الإنسـانيـة ومخاضـها القاسـى المرعب إن مصيرنا معلق بشىء اسمه.. عقلنا.. وما سـوف يشير به علينا.. ومـا سوف يفعله لـيتكيف مع وضع القـوة الجـديدة الذى وضـعنا أنفـسنا فـيـه وإذا أردنا أن نعـرف ما سوف تنتهى إليه خيوط المـأساة التى نغزلها. فلابد أن نعرف مزيدا عن ذلك اللغز الذى اسمه العقل.

ماذا وراء
بوابة الموت

١٢

مفاجأة..
كل يوم!

عمر الإنسان على الأرض أكثر من مليون سنة.. ربما عشرة ملايين من السنين.. وأثاره ومخلفاته فى الكهوف تدل على أنه اكتشف النار وطهى طعامه وأشعل سراجه منذ أكثر من ثلاثين ألف سنة. وكانت النار أول مفتاح عرفه من مفاتيح الطاقة. اكتشفها مصادفة من انقداح الشرر حينما كان يضرب الحصى ببعضه البعض ثم مرت أكثر من ٢٠ الف سنة أخرى، ثم عرف الكتابة بالقلم، والتقويم الشمسى وتعاقب الفصول ورصد النجوم والزراعة.. وبدأ الاستقرار وبدأت الحضارة.

ثم ألوف أخرى من السنين واكتشف صناعة الورق والبوصلة والملاحة ثم اخترع العجلة والعربة الحربية والبارود.. ثم ألوفا أخرى من السنين واكتشف البترول والبخار ثم بضع مئات من السنين واكتشف الكهرباء.

ثم بضع عشرات من السنين واكتشف الذرة والطاقة الذرية والالكترون.. واللاسلكى.. والراديو.

ثم أسرعت عجلة التطور وأصبح التقدم العلمى يقفز من سنة لأخرى.. الليزر.. التليفزيون.. الكومبيوتر.. الهندسة الوراثية.. السفر إلى القمر والمريخ والزهرة والمشترى وزحل وأورانوس.. ثم الخروج من المجموعة الشمسية إلى أعماق الكون.

لوحة مـفاتيح الطاقـة أصبحت تحـتوى على أكـثر من مفـتاح وأكثر من بديل.

النار.. والفـحم.. والبـترول.. والـبخـار.. والكهـرباء.. والذرة.. والليزر.. والميكرويف.. والطاقة الشمسية.. وحرارة باطن الأرض. وطاقة أمواج البحر.. والطاقة الكيميائية.

ثم أصبح كل شهر يحمل مفاجأة.

ثم كل أسبوع

ثم كل يوم.

وتعددت مجالات الاختراع.

واتسعت آفاق الاكتشاف.

وتسـارعت خطوات العلم.. وتحـولت إلى إيقـاع لاهث مهـرول وتطلعت العـقول إلى أكبـر طاقة.. الطاقـة التى تمسك النـجوم فى أفلاكها وتدفع بالكواكب فى مداراتها في تسارع مذهل.

إن أى قـمر صناعـى يلقى به إلى الفـضاء يدور حـول الأرض بسرعة أربعين ألفا إلى سـتين ألف ميل فى الساعة بدون أى نوع من الوقود وبدون أى نوع من المحـركات وبدون أى دفع نفاث أو غير نفاث.

الطاقـة التى تدفـعـه هى طاقة الجـذب الكونى بيـن الأجسـام (GRAVITY FIELD ENERGY) ثلاث دول عاكفة الآن علـى تسخير هذه الطاقة.. هى أمريكا وروسيا وإسرائيل.

أقـوى وأرخص طاقة في الـكون.. من يسبق إلى أمـتـلاكهـا.. سوف تكون له السيادة فى هذا العصر.

هذه الطاقـة هى التى تحـرك الأطباق الـطائرة.. إذا صدق أنهـا حقيقة وأنهـا تأتى إلينا من أطراف بعيدة مسكونة من الكون. ومن

يمتلكها سوف يستطيع الفرار من قبضة الأرض ليتجول حرا فى أرجاء الكون بسرعات لا تخطر على بال أحد.. وبدون وقود.

أما الجبهة الثانية من جبهات العلم التى سوف تحمل أكبر المفاجآت فهى الهندسة الوراثية.

وإذا قدر لعقل إن يفض شفرة الجينات ويكشف سر تواليفها فسيكون بإمكانه استنباط مخلوقات جديدة فى عالم النبات والحيوان والإنسان، وسوف يتحكم فى السلالات وفى أشكالها وأوصافها.

وهو طموح بعيد وغير محتمل.. لأن الجينات الموجودة فى خلية واحدة لكائن واحد تحتاج لعشرات السنين لحصرها وكشف أسرارها وعلاقاتها بافتراض إتاحة كل إمكانيات السوبر كومبيوتر والحاسبات الإلكترونية الموجودة.

وما يحدث الآن هو مجرد التجريب والعبث واللعب والتشريح العشوائى لهذه الجينات.

ومع ذلك فقد استطعنا من خلال هذا التجريب تسخير الميكروبات الدنيئة لصناعة الأنسولين.. واستطعنا تخليق سلالات جديدة من النبات والثمار والحبوب.. تقاوم الأمراض والجفاف وتنمو فى غير بيئاتها وتتحمل الملوحة العالية.. وهناك الجديد كل يوم فى الطريق.. وهذا النجاح أطلق غرور العلماء.. وآثار خيالهم.

وهم يحاولون الآن تخليق العبقرية فى أنبوبة اختبار.. وصناعة بيتهوفن من بويضة مخصبة بتلقيح صناعى.. وتركيب أينشتين تحت الميكروسكوب.

ولن يخرج من الأنبوبة أينشتين ولكن فرنكشتين.

ولن يخرج من البويضة المخصبة بيتهوفن وإنما المسيخ الدجال.

ومن يدرى ربما خرجت سلالة إبليسية.. أو مخلوقات أسوأ من يأجوج ومأجوج.. أو مسوخ ومردة لا يعلم بها إلا الله.

ونجاح العلماء فى تعديل سلالة خلية بكتيرية أو ثمرة بسلة.. لا يعنى تخليق شكسبير فى أنبوبة اختبار.. فبين خلية البكتيريا وخلية شكسبير ثلاثة آلاف مليون سنة فى سلم التطور.. وهى مسافة زمنية لا يمكن اختصارها إلى ثلاث دقائق !

ولكن العلم لا يعرف مستحيلا.

والعلماء فى عصرنا المادى لا يعرفون إلها ولا حدودا أخلاقية للبحث والتجريب.. ويرون فى أنفسهم أنصاف آلهة.. والسباق الأنانى بين الدول قد أصاب الكل بالدوار.. وكل شىء أصبح جائزا وممكنا ومباحا.

وموازيا لتلك الرحلة السريعة الإيقاع فى عالم الآفاق.. هناك رحلة أخرى أخطر وأعجب فى داخل النفس البشرية يقوم بها علماء من نوع آخر هم علماء الباراسيكولوجى.

ومنذ أن اكتشف الطبيب النمساوى فرانز أنطوان مسمر التنويم المغنطيسى منذ مائتين وأربعين عاما.. وهناك جيل جديد من علماء الباراسيكولوجى عاكفون على البحث والتجريب فى أعماق النفس وقواها الغامضة.

ظواهر نفسية مثل.. الحسد والتخاطر والجلاء البصرى والجلاء السمعى وأحلام التنبؤ واستشعار الخطر والقدرة على هزيمة المرض بالإرادة.. كل تلك الظواهر وغيرها كانت محل دراسة وتجربة وبحوث.

وحاليا هناك سباق بين مخابرات روسيا ومخابرات أمريكا على تجارب القتل النفسى عن بعد عن طريق التركيز وإرسال

شحن نفسية شريرة عدوانية للضحية المطلوب إيذاؤها.

وهو إحياء للسحر الأسود المعروف فى أفريقيا باسم الفودو.

هذه الرصاصة النفسية.

أو القنبلة العقلية.

هى آخر ما يجرى فى الخفاء من أسرار البحوث النفسية. وهى علوم لن تكون لها ثمرة إلا الشر المطلق. ولن تنجب إلا شياطين وسحرة.. ومردة جدد يقتلون بعضهم بعضا بأسلحة غير منظورة.

وما تفعله العين الحاسدة تلقائيا هو نوع من هذه الشرور أما صناعة الحسد فى المعمل وتربية الإرادة الشريرة وترويضها واستخدامها فهو شر أسوأ.

وإن أفلح هولاء العلماء فى ترويض تلك المواهب المرذولة واستخدامها.. فستكون البداية لعصر جديد من الجرائم الخفية والكاملة التى لا يمكن لأى شرطة ضبطها.. وبداية لسلالة بشرية أشبه بسلالة الجن الأبالسة تتخصص فى الشر والأذى والجريمة الخالصة.

ولا أحسب أن الله يفتح لهم فى هذا الباب إلا إذا كانت القيامة على الأبواب.

وإلى جوار هؤلاء العلماء، هناك علماء آخرون أفضل يبحثون فى مسائل الشفاء بالإرادة وهزيمة الأمراض المستعصية كالسرطان بإيقاظ قوى الحياة فى النفس عن طريق الابتهال والعبادة والدعاء.

والبعض يستخدم علوم اليوجا والثيوصوفى والتأمل والاسترخاء والتركيز وجمع الهمة.

والمستقبل يحمل جنين كل هذه الإمكانات بخيرها وشرها.

والغـد يحمل لنا كل تلك الأهـوال.. وكل تلك البشـائر ولا نعلم أيها سوف يسبق الآخر.

ولكنها جميعا فى الطريق.

وفى السنوات العـشر القـادمة سـوف تشهد الـبشرية مـا لم تشهده فى كل تاريخها القديم والحديث.

وسوف يحـمل لنا التلكس أخـبار الاخـتراعات والكـشوف كل ساعة زمـان لا نعلم من سيسـبق.. أخبار السيـاسة والحروب، أم أخبـار العلوم والكشـوف؟. وأى علوم سـتسبق.. علوم الخـير أم علوم الشر؟!..

وأظن أن الله سيعاملنا بنياتنا وقلوبنا.

وحسب ما نضمر سنكون.

ولن يظلمنا ربنا وإنمـا كالعادة نحن الذين سـوف نظلم أنفسنا والعلم سـلاح محـايد.. إنه كالسكين يمكن أن تـقشر بـها تفـاحة لتقديمها لصاحبك.. أو تقطع بها رقبته.

والأمر يتوقف على نصيبك من الحكمة والأخلاق والدين وأدعو الله.. أن تتغلب الحكمة.

ماذا وراء

بوابة الموت

١٣

قاذفة

القنابل

منذ ثلاثمـــائة مليـون سنة.. قــبل أن يجىء إلى الدنيـا شىء اسـمــه إنسـان.. والأرض مـازالت على بكارتها غـابة لم يشقها مـحراث.. ولد للحياة حـفيد جديد رقيق الجسم اسمه.. الحشرة.

وكان مقدرا لهذا الحفيد أن تكون سلالته المباركة أكـثـر مصنـفات الحـيـوانات عـددا وعـدة.. وأن يكون أذكى من الديناصــور العظيم وأوسـع حيلـة من ثعلب الجـبل، وأقــدر على مواجهة صعوبات الحياة من ضوارى الغاب.

وحينما زحف الثلج وغطى الأرض فى العـصر الجليدى وحول المحـيطات.. إلى جماد.. مـاتت الديناصورات العظيمـة وانقرضت الزاحفـات واحدة بعـد أخرى.. وبقيت الحـشرة تقـاوم مكومة فى الثلج وقـد أغـمـضت عـينيـهـا فى بيـات شـتـوى طويل لا تأكل ولا تتنفس.

وأشرقت الشمس ذات يوم لتدفىء الدنيا.

وذاب الجليد.

وخرجت الحـشرات بالألوف والملايـين من خنادقها.. وكـأنها يأجـوج ومأجـوج.. لتـغزو المـاء واليابسـة والصـحارى الجـرد والهواء.. بعضـها يأكل بعضـا.. وبعضـها يتطفل على الحياة الأخرى من نبات وحـيوان.. وبعضــها يتغـذى على الطين وبعضــها يأكل الروث.. وبعضــها يعيش على مـلح المستنقـعات وبعضـا يمتص الدم.

وإنها لقادرة دائما على التكيف على أى طعام موجود.

وبيننا اليوم حشـرات عجيبة تـأكل أنواعا عجيبـة من الأطعمة مـثل ذبابة البـترول الـتى تعيـش فى أحواض البـترول.. وذبابة التحنيط التى تعـيش على أملاح تحنيط الجثث.. وخنفـساء الدائرة الكهـربائية التى تعـيش على أسلاك الرصـاص.. وجنادب الينابيع الكبريتية الحارة.

والجعارين التى تأكل العظام.

وكل حشرة تتحرك مثل عربة مصفـحة تحيط بجسمها الرقيق صفـائح من مـادة كالصلب اسـمهـا الكيتـين تقاوم فـعل جمـيع المـهلكات الكيمـيائيـة .. وهى تسلح نفـسـها بحـراب وخناجـر وأشواك.. وبعضـها يسلح نفـسه بحويصلة من السم متصلة بإبرة حامية «الزبان» يطـعن بها أى عدو يقترب منه فيشلـه ثم يلتهمه.. وبعضها يتلـون بلون البيئة كفرس النبى الأخـضر بلون الخضرة والجرادة الصفراء بلون الرمال.. وبعضـها يلصق على نفسه أوراق الشجر المـيتة كما يفـعل جندى الصاعقة وهو يزحف.. وبعـضها يطلق غازات كريهـة ليطرد أعداءه.. وبعضـها يحفـر لنفسه خنادق ليـختـبيء.. وبعـضـهـا يبنى لنفـسه قـلاعا حـصـينة من الطين.. وبعضـها يحاكـى فى هيئتـه الزنابير اللاسـعة بدون أن يكون له زبان ليضحك على مطارديه.

والحـشرات تتحـمل درجات البـرودة القصـوى تحت الصـفر فتـتجمـد ولا تموت كمـا تتحمل الحـرارة العليا كمـا تعيش تحت الضـغط الجوى المنخـفض وتحت ضغـوط البحـر العاليـة تحت الماء.. وفى الفراغ.. وفى غـياب الأكسجـين.. وفى وجود الغازات السامة.

وكل حشـرة تعيش فى أكثـر من بيئة فـالبعوضـة فى مرحلة الدودة والشرنقـة تعيش فى المـستنقعـات، وفى مرحلة الحـشرة

الكاملة تعـيش فى الحـدائق وتتـغذى ذكـورها على رحـيق الزهر وإناثها على دم الإنسان.

والحشرات تسمع وتحس وتشم وترى أحيانا عن طريق قرون الاستشعار أو الوبر الخفيف على جـسمها، وبعضها له طبلة أذن.. وبعضها له عيون مركبة.

والمعجزة التى استطاعت بها الحشرات أن تهزم الموت والفناء وضراوة الظروف المهلكة.. هى معجزة النسل.

فحـشرة دودة القطن تبـيض فى اللطعـة الواحدة ٤٠٠ بيـضة تفقس ٢٨٠ أنثى و ٢٠٠ ذكر وكل أنثى تعود فتبيض ٤٠٠ بيضة وبعملية حسابية سوف نكتشف أن الحشرة تتضاعف ثمانين ألف حشرة بهذه الطريقة ثم ١٦ مليونا. كل هذا من حشرة واحدة وفى خلال زمن يعد بالأيام.

وذبابة الدروسوفيلا مثلا تنتج ٢٥ جيلا فى السنة ويبدأ الجيل الأول بمـائة بيضـة وبعـملية حـسابيـة بسـيطة يتضح أن العـدد النهـائى فى الجيل الخـامس والعشـرين يبلغ من العظم بحـيث لو تراصت ذباباته الواحـدة إلى جوار الأخـرى يتكون جسـر يوصل من الأرض للشمس.

وأعجب ما فى الحشرة ما يسمى بالمـعرفة الغريزية.. فحشرة أبى دقيق تختار أوراق الكرنب لتبيض عليها مع أنها لا تتغذى على الكرنب ولا تحتاج له وإنما تقودها إلى ذلك معرفة غريزية باطنة.. فالبيض سوف يفقس وسوف تخرج ديدان صغيرة لا تأكل سوى الكرنب فيجب أن تبيض حشـرة أبى دقيق على ورق الكرنب ليجد الصـغار مـا يأكلونه ومع ذلك فـحشـرة أبى دقيق لا تعـرف هذه المسألة معرفة عقلية واعية.

وحتى لو رأت الصغار التى فقس عنها بيضها فهى لن تعرفها.. ولن تعرف أن هذه الديدان أبناؤها.

إن كل العملية تتم بدون وعي وبإملاء من قوة مجهولة اسمها الغريزة، وزنبور الطين يصطاد الدودة ثم يبيض عليها بيضة واحدة ثم يضعها في العش ويمضي باحثا عن حصاه حتى إذا وجدها حملها بين ذراعيه وأغلق باب العش.

وتفقس البيضة لتجد اليرقة الصغيرة طعامها جاهزا بين يديها.

كيف أدرك الزنبور هذه الحاجة المسبقة فاحتاط لها.

والبعوضة التي تضع بيضها على سطح الماء فتزود كل بيضة بكيسين من الهواء تطفو بهما على السطح.. هل تعرف قوانين ارشميدس؟

والحشرة التي يسمونها في علم الحشرات «قاذفة القنابل» والتي تتمخطر أمام الحيوانات المفترسة دون خوف حتى إذا فتح أحدها فمه ليتلهمها ضغطت على كيس في بطنها فامتزجت في لحظة إفرازات ثلاث غدد تحتوي على مادة الهيدروكينون وفوق أكسيد الهيدروجين وأنزيم خاص، ويؤدي اختلاط الثلاثة إلى تفاعل شديد وخروج غاز لاسع كريه الرائحة فيفر الحيوان المفترس رعبا.

هل أخذت هذه الحشرة دبلوم الكيمياء من كامبريدج.

والحشرات التي تنصب الفخاخ من خيوط الحرير.

والحباحب التي تضيء بالليل لتجذب البعوض ثم تأكله.. وحشرات الماء التي تسبح في الماء بأذرع كالمجاديف وتطير في الهواء بأذرع مجنحة والحشرات التي تغني لتنادي على ذكورها.

لا شك أن هناك عقلا كليا خلق مخلوقاته وخطط لها وهو يعلم من الغيب ما لا تعلم.

إن الحديث ليطول ويحلو.

والموضوع يزداد غرابة كلما أوغلنا فيه.

ماذا وراء
بوابة الموت

١٤

الفجر القريب

لم يحدث في التاريخ أن جاء عصر بمثل هذه الوفرة والغنى والترف المادى والأدوات التكنولوجية التى تسهل الحياة على المواطن.. وقد رأينا أمهاتنا فى الماضى القريب يغسلن ويكنسن ويطبخن ويخبزن ويعجن ويرضعن أطفالهن.. واليوم الغسالة الأتوماتيكية والمكنسة الكهربائية والوجبات الجاهزة والمخبز الآلى والألبان الصناعية تؤدى عن المرأة كل هذه الوظائف.. وبضغطة على زر يستحضر المشاهد فى لحظة فرقا استعراضية من كل أنحاء العالم ترقص وتغنى له.. وهو يستطيع أن يصل إلى أقصى أطراف المعمورة فى ساعات بالطيران النفاث.

وهو يستطيع أن ينزل إلى أعماق البحر وأن يرتاد الفضاء، وهو يستطيع أن يوظف العلم لتخضير الصحارى ولزرع الأجنة فى الأنابيب ونقل قلوب الموتى إلى صدور الأحياء وعلاج العقم وهزيمة السرطان، وهو يستطيع أن يستحدث محاصيل جديدة ويضاعف من المحاصيل القديمة.. والانتاج الزراعى وصل أحيانا إلى درجة من الوفرة أدت بالمنتجين إلى إلقائه فى البحر حتى لا ينخفض سعره.

والطاقة الذرية والطاقة الشمسية والإلكترونيات والليزر والأمواج فوق الصوتية فتحت مغاليق أسرارها للإنسان.. والفلاح المعدم الأجير وصلت يوميته فى مصر إلى عشرة جنيهات

وأصـبح عـملة نادرة عـزيزة، ومـثله النجـار والحـداد والنقـاش والسباك وهى حرف سهلة لا تحتاج إلى أكثر من شهور لإتقانها.. وعائدات النـفط الوفيرة من الـعملة الصعـبة انتـقلت بدول الخليج وإيران بقـفـزات حضـارية لاهثـة لتـجـعلها فى مـصـاف الدول الأوروبية.

وكـان المـفـروض أن تؤدى هذه الوفـرة والغنى والسـهـولة بالإنســان إلى السعــادة.. ولكن ما حــدث كان العكس.. فـقد ازداد الإنسان بهـذه الوفرة المــادية تعاسـة وارتفعت معـدلات الجنون والانتــحار والأمـراض النفســيـة فى العالم كله.. وازدادت الأســر تفككا وازداد الناس بعدا عن بعضـهم البعض وانعدم التواصل بين الزوج وزوجته والأخ وأخيـه والأب وابنه.. وأصبح الناس كالجزر التائهة الشاردة لا يكاد يجمعها رابط.

وشــهدنا عـشــرات الحـروب وسقط آلاف الـقتلى واشــتـعلت الحرائق فى كل مكان وأصبح الإرهاب والقتل العشوائى والعبوات الناسفة والسيارات الملغومة والقصف الأعمى ظواهر عادية.

وانقلبت النعـمة التى بين أيدينا إلــى نقمة.. وبـدقة أكثـر نحن الذين قلبنا هذه النعمة إلى نقمة فنحن ننـفق أكثر من ستمائة ألف مليون دولار سنويا على الســلاح وعلى أدوات القتل.. ونحن لوثنا الهواء والبحـار والأنهار والزروع بالفضلات والعوادم والمـبيدات ونحن رصدنا الأموال فى كل مكان لتطوير أسلحة الموت والدمار.

ونحن فى كل مكان نجـتـمع ولا نتفق ونـتصــافح ويطوى كل واحد قلـبه على ضغـينة وقد أعلن كـل واحد منا من نفـسه دولة مستقلة ذات سـيادة وأصبحنا نتصادم كل يـوم بعدد الستة آلاف مليون فرد من ساكنى هذا الكوكب.

إن المـادة والوفرة لم تقـربنا بل فـجرت فـينا حب المصلحـة وحب الاكتناز والرغبة فى الجمع وفجرت الـ «أنا الوضيع» النفس الأمارة الحيوانية الشـهوانية التى ترغب بلا نهاية. وأصبح كل منا مجرد جوع لا يشبع.

وتحول هذا الـ «أنا الوضـيع» إلى جدار غليظ صفـيق يفرقنا.. ولم يعـد كل منا يسمع إلا نفـسه.. وتحـول الحوار إلى كـلام من طرف واحد لأن الآخر لا يسمع.

كيف نعلو على هذا الـ «أنا» ونتجاوزها إلى المرتقى الأعلى من نفوسنا.

هذه هى المشكلة؟

كيف نتـخطى المصلحـة الشخصـية إلى القيـم الأعلى والمثل الأشمل.

إن التدين الشكلى.. والإيمان باللـسان.. والخلق المظهرى ليس حـلا وإنما المطلوب هو إيمـان تذوق وتشـرب ومبـادىء تمتـزج بالشـغاف واقـتناع يصل إلى مـركز الشـعور واعـتناق يصل إلى نخاع العظم.

المطلوب تديـن يصل إلى ذروة الأزمـة الوجـودية التى تغـيـر صاحبها وتصهره لتخرج به من حيوانيته إلى إنسانيته.

ويبدو أن العـالم كله صائر إلى هذه الأزمـة الوجودية ومـقبل على هذه المخاض المؤلم.. إن المرحـلة الروحانية القادمة لن تولد إلا من خلال الفشل المادى.. والإسلام الحقيقى لن يولد من مجرد شكليات صـورية مثل اطلاق اللحـية أو تقصـير الثـوب وإنما من محنة عـالمية وهائلة تصـهر الناس فى أتون العذاب حـتى تتطهر معادنهم وتذوب غشاواتهم وتتفتح بصائرهم.

وما نـحن فيه الآن مـن ضنك واحباط وتعب هو الليل المظلم المدلهم الذى يسبق الفجر.

وربمـا اشتـد الظلام فى المـستـقـبل القريـب وربما ادلهـمت الكوارث أكثر وأكثر وربما فاتنا شهود الفجر وقصرت أعمارنا عن بلوغه. ولكنه قادم.. وحسب كل منا نصيبيـا أن يسهر على معركته الخاصة الفاصلة ليتعجل ميلاد الفجر فى نفسه هو أولا من خلال محنته هو وعـذابه هو ومن خلال أزمته الوجودية الخـاصة.. ففى داخل كل منا معـركة مع نفسه الأمـارة ومع الـ «أنا الوضيع» فى داخله.. ومع شهـواته ومصالحه.. عليـه أن ينتصر فيـها أولا.. إذا أراد لمسيرة النور أن تهزم جـحافل الظلام التى تجثم على العالم من جميع أقطاره.

عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم.

على كل إنســان أن يعلن الثـورة على نفـسه أولا وأن يـعتـقل شياطينه وأن يغـير سلوكه وأن يجعل من نفسه مـثالا وقدوة قبل أن يطالب الآخرين بأن يبدلوا من سلوكهم.

وقد يطول المشوار ولكن سلامة الوصول أكيدة.

أما التـغيـير التـعسفى عن طـريق قلب نظم الحكم وعن طريق العنف القهرى فـقد يبدو لأول وهلة أنه يقصر المشـوار ويختصر التاريخ ولكن مـا يحدث هو العكس.. إنه يطيل أمـد المحنة ويعطل التاريخ ويستـبدل الظلم القديم بظلم جديد ولا يغير نـفوسا وإنما يغير كراسى وبطاقات.

إن نفوسنا هى الـمعاقل الأولى للثـورة والتغيـير وترويضـها وقيادتها هى المنطلق لقيادة أى شىء وليـست شقشقة الشعارات وطنطنة الهـتافات فليـعكف كل منا على نفســه يروضـها ويربيـها

ويزكـيها ويكـافحهـا فذلك هو الـجهاد الأكـبر الذى صنع الـفرد المؤمن.. ومن الفـرد تنمو العائلة والمـجتمع والأمـة والتاريخ ولا يأس من طول الطريق.. فإنـما أول الغيث قطرة ومـعظم النار تبدأ من مجرد شرارة.. وذلك هو المراد حينما يقول لنا القرآن ﴿**إن الله لا يغـير ما بقـوم حتى يـغيروا مـا بأنفســهم**﴾. فذلك إذن هو منطلق التغيير.

أن أغير ما بنفسى.

وأن تغير ما بنفسك.

وأن تشرق شمسنا أولا من داخلنا.

وذلك كلام قديم جدا.. بدأ من أيام سقراط!!

ماذا وراء

بوابة الموت

١٥

نهاية

الظلام

المشهد فى أوروبا الآن لما يحدث فى كوسوفو هو للأسف تكرار ممل لما حدث فى البوسنة والهرسك ولما حدث فى الشيشان ولما حدث فى بورما ولما حدث فى الفلبين وهو تكرار بطىء لماحدث فى أسبانيا بعد سقوط الدولة الإسلامية ومسلسل المذابح للفلول الهاربة الناجين بأنفسهم من الصلب والحرق .

وحلف الأطلنطى لا يملك إلا أن يغطى حمرة الخجل التى كست وجهه بتهديدات شفوية للسفاح ميلوسوفيتش يعقبها بالمهلة تلو المهلة حتى يشبع من التمثيل بضحيته وحتى يسلم آخر طفل إلى غول البرد والجوع عند حافة الجبل .

والأطفال اللقطاء يباعون فى أوروبا لعصابات دعارة الأطفال وللتنصير ولأهداف أخرى .

وتكريس الظلم هو الحقيقة الوحيدة العارية التى تصفع الوجه الإنسانى لهذا العصر الذى يتحدث عن تطهير البيئة وإنقاذ الحيوانات من الإنقراض وثقب الأوزون وينسى أن النوع الإنسانى نفسه أصبح مهددا بالانقراض .. وأن الرحمة أصبحت حفرية بائدة .. وأن الدين عند ادعياء التدين هو تصنيع قنبلة لنسف الطرف الآخر .. أو القتل غيابيا كما يحدث فى الجزائر .

وأسال متعجبا ..

لماذا تعجبون يا إخوانى إذا نبح الكلب أو عض الذئب أو نهشت الضباع الرمم .. ألم يخلق الله لذاك نابا وأنبت لذاك ضرسا وصنع لذاك طاحونة تطحن الرمم .. ألم يجعل فى هذا الغذاء طعاما وقوتا وصحة لهذه الوحوش .

إنى لأجد المعنى فى الغابة .. ولا أجده فى المدينة التى نسكنها.

إنى أجد السلام والأمن فى الغابة فلن ينفجر لغم تحت قدمى ولن تسقط على رأسى قنبلة عنقودية .

وعجبت للرئيس ياسر عرفات يمد يده ليصافح شارون فلا يحرك هذا ساكنا ولا يلتفت إليه .. كيف وجد ياسر عرفات فى نفسه الرغبة ليصافحه .. وكيف تتحرك الأيدى للسلام بدون سلام .. ولم أشهد بطول المفاوضات مع اليهود سلاما .. وما شهدت إلا كبرا وعنادا وصلفا واستكبارا وتصلبا ونفورا .

السلام لين وانقياد وسلاسة .. ورغم الاتفاقات التى وقعت .. فإنى لم أر للسلام ظلا ولم أشهد له ريحا فى واى بلانتيشن .

إنما هى تمثيلية سوف يعقبها اشتباك فى أول منعطف طريق .

نحن فى حاجة إلى إطلالة بطل .. إلى روح البطولة الجامعة .

نحن فى حاجة إلى صلاح الدين .

إنهم يطاردون الأكراد فى كل مكان خوفا من أن يبعث فيهم صلاح الدين من جديد .

إن معجزة صلاح الدين كانت فى روحه الجامعة التى جمعت الأشلاء العربية على إرادة واحدة .. إنهم استأنسوا الطالبانى والبرزانى وبقى أوجلان .. ولن يغمض لهم جفن وهو حى يرزق.. ولا أظن إلا أنهم قاتلوه .

ولكن الله هو الذى يخلق الأبطال وهو الذى يحفظهم حتى يؤدوا رسالاتهم .

ولا يملك أوجلان أن يجعل من نفسه بطلا .

إنما البطل رهن الغيب لا يعلم به إلا عالم الغيب .

ولن تظل أمريكا مظلة أبدية تحتمى بها إسرائيل .

وأى ريح أو زلزال أو إعصار يمكن أن يجعل من أمريكا أثرا بعد عين .

وقد ذكر الله فى قرآنه : ﴿ **عادا الأولى** ﴾ التى بغت وطغت واستأسدت .. وكانت تقول .. من أشد منا قوة .. وكانت عاصمتها لؤلوة العواصم .. وسماها القرآن : ﴿ **إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ ويبدو من اسمها أنها كانت ذات أبهاء وأعمدة لا مثيل لها ولا نظير .. فلما قضى الله بزوالها زالت وامحت ولم تترك أثرا يدل عليها .

تلك كانت عادا الأولى .

وأمريكا هى الثانية ..

وهذا مصير الجبارين والعظام المتألهين بعظمتهم على الناس .

ولن تجد لسنة الله تأويلا ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وللذين يتساءلون .. كيف .. وهل ممكن .. وهل يعقل .. وهل .. وهل .

نقول لهم .. وأين روسيا صاحبة أول سفينة فضاء .. وصاحبة أكبر ترسانة للقنابل النووية .

روسيا التى قسمت العالم إلى يمين ويسار وتقدمى ورجعى وألقت به فى حروب لا نهائية طولا وعرضا من أنجولا إلى موزمبيق ومن البرازيل إلى المكسيك وهزت الكرسى البابوى

وأنشأت علما مستقلا اسمه علم الإلحاد واحتكرت لنفسها المستقبل لأكثر من نصف قرن .

أين روسيا الآن من روسيا الأمس وهى تتسول اللقمة وتعطى موظفيها مرتبا شهريا من الكرنب بدلا من الروبلات التى سقطت قيمتها إلى الحضيض .

ولا يبدو فى الأفق مخرج غير التسول وطلب المعونات .

أى خيال مجنون كان يمكن أن يشطح بصاحبه إلى مثل تلك النهاية فى دولة عظمى كان ذكرها يبعث الرعدة فى الأوصال .

لكن الغفلة الشيطانية التى نعيشها فى ضجيج الإعلام وفى ضوضاء التليفزيون وبرامجه البلهاء ينسينا رفقة الحكمة والتأمل والاعتبار .

وتمضى الأحداث تنسى بعضها بعضا ..

والقتلة .. هل تذكرون عصابات القتلة من الهوتو والتوتسى فى رواندا ومليون جثة قتيل يجرفها النهر حتى تسد مجراه .

هل تذكرون من كان وراء تلك المذابح ومن كان يزود عصابات التوتسى والهوتو بالسلاح .. وثروات الكونجو من الماس والمعادن الثمينة وحرب الأطماع الخلفية التى تتنافس فيها فرنسا وبلجيكا وأمريكا وإسرائيل .. وموبوتو سيسى سيكو رجل فرنسا وعميلها ومن بعده كابيلا رجل أمريكا ... وأين الشعوب .. لا توجد شعوب .. إنما يوجد لصوص وعصابات و CIA وموساد ونشل منظم لثروات عالم بدائى لا يعرف له مكانا فى التاريخ .. وظلم بل ظلمات بعضها فوق بعض .. وقتل .. ودم .. وإبادة.

هل يفكر هؤلاء فى ساعة المحاسبة .

لا أحد يفكر .. ولكن لا يوجد شىء أكثر يقينا من هذه الساعة .

والذى خلق هذا العالم الباهر فى دقـته وإعجازه .. لن يفلت من يده ظالم .

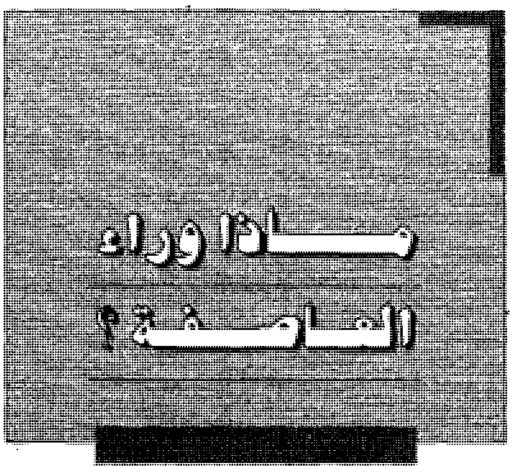
والذى خلق الإنســان والكـومـبـيـوتر .. ومـا خـفى من علوم المستقبل .. لاشك يعلم كيف يكون الحســاب دقيقا ولأصغر كسر عشرى .

وفى حســاب المواقيت عند ربـنا هناك ما هو أصغـر من واحد على مليـار من الثانية .. وفى سـرعات الليـزر ما هو أدق من ذلك بكثير .

وحـينما يقـول ربنا إن عنده المـوازين القسط فـإن أهل العلم والإيمان يدركون من ذلك ما يشيب له الوليد .

حـقـا .. إن قلبـا لا يسكنه الـخوف مـن الله .. ليس قلبـا .. بل مقبرة.


مـــاذا وراء
بوابة الموت
١٦


مـــاذا وراء
العـاصـفـة ؟

ما يجرى فى أمريكا أمر غير مفهوم .

هذه العاصفة التى شملت كل وسائل الاعلام المرئية والمسموعة والمقروءة وكأنما قامت القيامة على الرئيس كلينتون وعلاقته الجنسية بمونيكا وما حدث فيها من ألوان « قلة الأدب » وما تبقى على الفستان من آثار بيولوجية تخص الرئيس .. وخمسمائة صفحة من اعترافات الآنسة مونيكا مليئة بالتفاصيل وتفاصيل التفاصيل المخلة والمقززة التى ضمنها المحقق كينيث ستار وأرسلها فى ٣٦ صندوقا تحت حراسة أمنية مشددة إلى رجال الكونجرس لتروى أحداث هذه العلاقة «غير الشرعية » مزودة بالرسوم والاسكتشات التوضيحية .

وأفتح فمى فى دهشة وأنا استمع وأتفرج وقد اختلط على الأمر وكأنما يجرى هذا التحقيق فى صحن الأزهر على أيدى رجال الشرع الغيورين .. ثم أعود فاكتشف أنه يجرى فى صحن واشنطن وفى قلب أمريكا التى تنشر أفلامها ومسلسلاتها العهر والفجر والشذوذ والمخدرات فى شباب العالم والتى لا تجد فيها طالب جامعة لا يتأبط فى ذراعه girl freind إلى شقته .. ولكل أمريكى شأن خاص وحياة خاصة يحرسها الدستور الأمريكى ولا يحق لفضولى أن يدس أنفه فيها .. ومغامرات الرئيس الراحل كنيدى مع مارلين مونرو والروايات العديدة عما جرى بين كل

رئيس وسكرتيرته .. حكايات عادية كانت تمر بسلام ولا تفتح فيها ملفات تحقيق ولا عرائض اتهام .. والعهد قريب بالرئيس الفرنسى ميتران الذى لم يجد غضاضة فى أن يعترف بابنة غير شرعية يدعوها على الغداء علنا فى أفخر مطاعم باريس .. ويبتسم الفرنسيون إعجابا برئيسهم وأخلاقه المتحررة .. فماذا جرى هذه المرة فى قلعة الفساد والعهر فى العالم .. وما هذه الغضبة المضرية للحياء والشرع وما هذه الصيحات التى توشك أن تهدد بالجلد والرجم أو خلع الرئيس الفاسق من كل مناصبه .

وهل تنسجم هذه الغضبة الشاملة والمبرمجة بمهارة مع الدور الهدام الذى تباشره أمريكا فى قيادتها الفنية للعالم وهى تدعو بفنونها وأقمارها الفضائية ورواياتها وقنواتها التليفزيونية للتفسخ والتحلل من كل شرع ومن كل حياء .. ومايكل جاكسون البهلول الشاذ جنسيا الذى تصفق له وسائل الاعلام الأمريكية .. أبلغ مثال .

إننا أمام تناقض غير مفهوم وغضبة للأخلاق من دولة لا خلاق لها . .دولة تباشر القتل الأهوج للأبرياء فى غاراتها الجوية على السودان وأفغانستان .. ثم تلبس الحجاب والنقاب وتغضب للشرع فى حكاية مونيكا .

نفاق عظيم من دولة عظيمة .. ورئيسها كلينتون حينما يحاصر بالأدلة ويسمع بخبر التقرير الذى أرسله المحقق كينيث ستار فى ٣٦ صندوقا وفى مئات الصفحات الحافلة بالصور والتفاصيل والأسرار والفضائح التى اعترفت بها عشيقته .. يتحول فجأة إلى شخصية الشاب النادم المعترف بالذنب ويلبس مسوح التوبة ويعتذر لحزبه ولزوجته وابنته وللجميلة مونيكا التى انتهك عفتها

ولأم مونيكا ووالد مونيكا وللأمه الأمريكية كلها .. ويطلب المغفرة من الله والعون من الكنيسة ويتهدج صوته ويبتلع دموعه وتخرج نبراته منكسرة وكأنه ضبط يتبول على نفسه . عبقرية جديدة .. نكتشفها فى رئيس أكبر دولة .. وفى كيف يتحول الذئب إلى حمل والنسر الكاسر إلى حمامة وديعة .. وقائد أكبر دولة إلى طفل .

ولكن هل ينجيه ثوب الضعف والندم والاستغفار ؟!!

أشك فى ذلك .. وما حدث كان العكس .. فقد أسقطه ضعفه فى عيون حزبه .. ولم يجدوا فيه رجلهم القوى الذى يمثلهم .. وتخلى عنه أكثرهم .

ولا شك أن الشرك المحكم والفخ الذى نصب له بمهارة .. والعقول الماكرة التى دفعت إليه بولا جونز ومن بعدها مونيكا لوينسكى ثم ليندا تريب لتسجل عليه الساعات الطوال من أشرطة الغزل الجنسي والفحش والهمس .. وكلهن يهود .

كل هذا كان وراءه خطة لاستدراج الرجل إلى حتفه .. وجبهة تريد تنحيته والإتيان بالنائب النشط آل جور الأكثر موالاة للخطط الصهيونية والرجل الأقوى فى مواجهة المواقف .. فالسنة أو السنتان الباقيتان من ولايته هما أخطر سنتين لتحقيق إسرائيل الكبرى .. وربما للإقدام على المواجهة العسكرية المحفوفة بالأهوال وهو ظرف لن ينفع فيه أمثال كلينتون الضعيف المفتون.

إن الصهيونية تريد رجلها .

ولابد أن يتغير المسرح وتتبدل الوجوه .

وما كان أسهل أن تقوم قيامة الإعلام الأمريكى فعملاق الصحافة الأمريكى هو الصهيونى اليهودى روبرت مردوخ الذى يملك وحده أكبر عشر صحف هذا غير محطات البث التليفزيونى ودور النشر .

وهكذا انفجرت البالونة المنفوخة بعناية .

وكان ما نرى أمامنا من عرض مبرمج ومصنوع وفضيحة منسوجة بمهارة وحرفية ليلبسها صاحبنا .. وليلتبس الأمر علينا نحن فلا ندرى ما الحكاية .

وسوف يمضى كلينتون إلى حال سبيله أو يتحول إلى بطة عرجاء تنفذ ما يطلب منها دون مناقشة .. وهو أمر مفيد فى الحالين .

أو يأتى الفتوة الجديد آل جور ليقود السفينة فى الموج المتلاطم إلى حيث تريد إسرائيل .

وهذه هى القراءة المنطقية الوحيدة لهذا العرض غير المنطقى الذى شاهدناه لهذه الغضبة العنترية لعفة لا وجود لها ولأخلاق عذرية انتهت من آجال ولم يعد لها وجود فى القارة الأمريكية ولا فى أى بقعة من أوروبا .

وفى قلب لندن فى الامبراطورية البريطانية العريقة وفى العائلة المالكة ذات التقاليد المحافظة العتيدة طلعت الأميرة ديانا على شاشات التليفزيون لتقول فى جرأة عجيبة أمام الملايين .. لقد خنت زوجى أكثر من مرة .. والزوج المذكور هو الأمير شارلز وريث العرش بجلالة قدره .

وماذا حدث حينذاك ؟!!

صفق لها الشعب واعتبرها قديسة .. ومشى فى جنازتها الملايين .

وهذا هو عصرنا العجيب الذى نعيشه .. فأى غرابة فيما فعل كلينتون باتخاذه عشيقة .. وهو الرجل «الحليوة» المتربع على

عرش أقوى دولة فى العالم .. دولة تزعمت العالم فى اللهو والعهر والفجور .. وجعلت من إعلامها فراش غرام .

وكيف احمر وجه هذا الإعلام فجأة خجلا وراح يتشنج من التقوى والتعفف .. وكيف تحولت الصحافة الفاجرة إلى كردينال يحاكم العشاق ويهددهم بالجلد .

لقد كانت الخطيئة الكبرى التى ارتكبها كلينتون هى مسوح التوبة التى لبسها فجأة ووقف حانى الرأس يقول بصوت مرتجف كطفل ابتلت ملابسه الداخلية .

لقد أخطأت وفعلت فعلا غير لائق .. وأنا مذنب ونادم .

والحق أن ما فعله كان لائقا ومناسبا أشد المناسبة للأخلاق الأمريكية والحضارة الأمريكية التى يمثلها .. وكان ابن هذه الحضارة بحق فيما فعل .. وابن هذا العصر الداعر المنحرف .

ولو أنه قال فى رجولة :

« هذه أمور شخصية تخصنى وحدى وليس لأحد أن يخوض فيها .. حاسبونى على إدارة الحكم وعلى إدارة الاقتصاد وعلى علاجى للبطالة فهذا ما اخترتمونى من أجله » لو قال هذا .. لكان منطقيا مع نفسه ومع منصبه كرئيس ومع دولته التى لا يهمها إلا رواج السوق وارتفاع الدولار .

ولكنه اختار إثارة العطف وتحول إلى طفل .. فخسر كل شىء واستحق السخرية .

ولم نقبل منه بعد ذلك إرساله أرتال الطائرات قاذفات القنابل للإغارة على أفغانستان وضرب مصنع أدوية الشفاء فى السودان.. للتغطية على أفعاله وكانت هذه التغطية منه رجولة مفتعلة فى غير موضعها .

وسوف يظل السامر الإعلامى ومـولد سيدنا كلينتون ومونيكا مادة مسليـة للفرجة والسهر ومـسلسلا مشتعل الحلقـات يتجمع حوله العالم مثل مباريات كرة القدم ومسابقات الكأس .

وكالعـادة فى أمريكا كل شىء يتحول إلى تجـارة « وبيزنيس» وكل مصـيبة تتـحول إلى مكسب حـتى سقوط السـيد الرئيس .. والبـركـة فى المـخرجـين العظـام من وراء الأحداث وأصـحـاب المصالح فيما حدث ويحدث .

وإذا صادفك حدث غيـر منطقى فى بلاد العم سام ولم تستطع أن تفهمه عليك أن تسأل من المستفيد ومن الخاسر وما المصلحة ومن هم أصحاب المصلحة .

ولمـاذا فى هذه الحكاية التى حكيناها كـان كل الأبطال يهـودا بولا جونر ومـونيكا لوينسكى وليندا تريب وباقى سـرب الهوانم اللائى ألقى بهن فى طريق كلينتـون .. وأعضاء الـكونجرس الذين أطبقوا على رقبته كانوا أيضا من نفس الطائفة .

ولماذا احـتفظت مـونيكا ببقـايا السائل المنوى فى فـستـانها لسنوات ولم تـفكر فى غـسله ولـمـاذا سـارعت ليـندا تريب إلى تسجيل مكالماته .

إن مـا حدث لـم يكن شيـئـا عـفويا ولـم يكن عاطفـة عـابرة ولا نزوة .. وإنما كان فخا منصوبا بمهارة .

واليـهود والصــهايـنة هم أصحـاب المـصلحة فى أن يمـضى كلينتون لـحال سبـيله ويأتى رجلهم آل جور لأن السـلام العربى الإسرائيلى استنفد أغـراضه ووصل إلى نقطة تحول .. وكلينتون لم يعد رجل هذا التحول .

وما تبقى من قضايا مع العرب لن يؤخذ بالسلام بل بالحرب .

وهذا الانتقال من الأبيض إلى الأسود دفعة واحدة سوف يحتاج إلى رجل آخر وإلي لغة أخرى وظروف أخرى ومبررات أخرى .

وما نراه الان هو بعض هذا التحول .

وسوف تتغير غدا أشياء كثيرة .

فهل يدرك أصحابنا العرب المتغيرات الجديدة .

وهل ستكون عندهم المرونة الكافية ليغيروا من أنفسهم ومن مواقفهم ومن الثوابت التى دأبوا على ترديدها مثل .. السلام حل وحيد .. والسلام إلى الأبد .. والسلام قرار استراتيجى .. وأغانى مدريد .. وشعارات أوسلو .. وأحلام كوبنهاجن وتسابيح كامب ديفيد.. إلى آخر موال النوم فى العسل .

وإلى متى ذلك النوم

وماذا لو فاجأهم العدوان.

ماذا لو أعلنت عليهم الحرب .

ماذا لو اقتحمت الدبابات حدودهم .

هل فكروا فى هذا الاحتمال .. ؟؟!!

وأقول .. بل هو الآن أكثر من احتمال .. وبعد هذه المقدمات لعزل الرئيس أو تكتيفه أصبح هذا الاحتمال حقيقة .

فهل سأل العرب أنفسهم .. لماذا تكدس إسرائيل السلاح فى ترساناتها .. ولماذا تعقد الأحلاف العسكرية مع تركيا ؟!!

وهل تراها تكدس السلاح ليصدأ فى مخازنه ؟!!

وهل تنفق الملايين بل المليارات هباء على أسلحة كيماوية ونووية وطائرات ودبابات وصواريخ لا تفكر فى استعمالها .

وهل يسمع العرب دوى انفجارات القنابل الإسرائيلية فى جبال لبنان كل يوم .

وهل يذكرون كلام الله فى قرآنه عن الحرب مع إسرائيل .

وهل يقول ربنا فى قرآنه إلا الحق .

هى مجرد كلمات للتذكرة .. ولإعمال الفكر.. ولإعادة النظر .. حتى لا نفاجأ بما لم يكن على البال .

وحتى لا يقول رجال الاستراتيجية عندنا .. هذا أمر لم يكن فى الحسبان .

وسؤال آخر فى حكاية مونيكا وكلينتون يلح على ذهنى .

ألم يخطر على بال هذا الرجل المفتون الذى تربع على عرش أكبر وأقوى دولة فى العالم احتمال واحد فى المائة أن تكون هذه العاشقة المتيمة التى ألقت بنفسها فى طريقه وارتمت فى أحضانه يمكن أن تكون جاسوسة تستعمله وتمثل عليه وتسجل عليه مكالماته وهمساته .

وهل انطمس عقله وضاعت فطنته لأول قبلة .

وكيف يعتذر لها بعد كل ما انكشف له من لعبها بعقله وما حدث من فضحها له واحتفاظها بعينة من سائله المنوى لتشهد بها عليه .. كيف يعتذر لها ويطلب منها الصفح والمغفرة .. وعن ماذا .. ومن الجانى ومن المجنى عليه فى الحكاية كلها .

وكيف يمكن أن يؤتمن مثل هذا الرجل على المنصب الخطير الذى يشغله .

يغلب على ظنى أنه انتهى فعلا .. وأنه ذاهب .. وأن الصهاينة قد حبكوا خطتهم « وقرطسوا الراجل » .. وإننا سائرون بسرعة إلى ذروة مؤكدة .

مـــاذا وراء

بوابة الموت

١٧

إنذار بســوء الخاتمــة

سـهيـر أحمـد السكرى أخصـائية اللغـويات فى جـامعـة جورج تاون واشنطن تحكى قـصة مـثيـرة ذكـرها الـكـاتب الإنجليـزى E. H. Janser فى كـتـابه Militant Islam أى الإسـلام المقـاتل يقـول فـيهـا أن إنجلتـرا وفرنسـا قد أجـرتا بحوثا عن أسـباب قـوة وصلابة الإنسـان العربى وتمكنه من فـتح البلاد المـحيطة به من الهند إلى تخـوم الصين .. فوجـدت أن السر فى ذلك كـان طريقة تعليم الطفل العـربى وكيف أنه يبـدأ قبل الخامـسة بحـفظ القرآن وخـتمـه وهو الكتاب الجـامع لأفصـح التراكـيب اللغوية وأجـمل الصيغ البلاغـية التى تنطبع فى الذاكرة فلا تزول مما يحـميه من الوقوع فى مرض الازدواج اللغوى (دياجلوسيا) وهو الضياع بين لغتين عامـية وفصحى لا يتقن أحدهما .. كمـا يعطيه القرآن طاقة نضالية وصلابة خلقية وزخما إيمانيا وصلة بالغيب لا تتخلى عنه طول عمره فهو يشعر دائما أنه لا يقاتل وحده وإنما يوقن بأن الله معـه ينصره ويؤازره طـوال عمره (آخـر عدوان على القـرآن فى بلدنا كـان قرار الأزهر بتـقليص درجات الامـتحـان الشفـوى فى القرآن .. وكيف يكون هذا والـقرآن كتاب نزل ليقـرأ شفاها بحكم تسـميـته قـرآنا .. وعلم القـراءات علم أساسى فى التـلاوة وعلى الممتـحن أن يسمع القرآن من فم الطالب كـيف يتلوه وكيف ينطق

آياته .. وأول ما نزل منها : اقـرأ باسم ربك .. لم يقل ربنا .. اكتب باسم ربك) .

وقد آمن المستـعمرون الإنجليز والفرنسيـون بأن المعركة مع المـسلمين يجب أن تبـدأ من الفـصل الدراسى .. من المدرسـة .. بتدمـير التـعليم الدينى (هكذا تقول السـيدة سهـير) كـما تكون بنشـر المـدارس الأجنبـية الـمنافسة فى كل الـبلاد العـربيـة .. ومـحـاربة اللغـة العـربية وبـالانفاق فى بـذخ على تعليم اللغـات الأجنبية وربطهـا بالتقدم والتكنولوجيا والعلوم العـصرية وفرص الثراء والمـرتبات الأكبـر .. وجعل القرآن مـحصورا فـى الكتاتيب والمـدارس الفـقـيرة والأسـر المـعـدمـة وربط التـعليم الأجنبى بالطموح الطبـقى والنجاح والغنى .. وفى إحصائيـة أخيرة اتضح أن مـحصـول الطفل الأجنبى من المـفردات اللغـوية قبل دخـوله المدرسة يبلغ فى المتوسط ١٧٠٠٠ كلمة .. بينما محصول الطفل العربى فى هذه السن تكاد تكون معدومة .

وهى ظاهرة تفـسـر تخلفنا .. وتفـسر أن مـا يحـدث الآن من حـصار للإسـلام وضـرب للمسلمـين هو أمـر قديم كـان وراءه تخطيط وفكر .. وأن الواجـهة البـريئة من المـدارس والجامـعات الأجنبيـة والثقافـات المنافسة لم تكن أمـورا تطوعية لخـدمتنا بل كـانت غزوا منظمـا مدروسـا لفتـح ثغرة فى هذا الجـدار الصلب الفولاذى الذى اسمه الإنسان العربى والفتح العربى الذى امتد من المـحـيط الأطلسـى إلى الخليج الفـارسى ومن الـهند إلى تخـوم الصين فى لا زمان .

وتتحدث السيدة سهيـر عن غزو آخر يواكب هذا الغزو تسميه الـ Junk food.. أو أكل الزبالة وهو المـوجة القـادمة من أمـريكا ..

سندوتشات الهامبورجر والماكدونالد والوجبات السريعة .. وهى تصنع عادة من نفايات اللحوم وزبالتها وليس لها قيمة غذائية تذكر .. وقد جاءتنا هذه الموجة مع هواية الأكل على الواقف والأكل على الرصيف والأكل فى الأتوبيس .. وهى طريقة للأكل غير صحية وهى مسئولة عن حالات التلبك المعوى وسوء الهضم وفقر الدم وسوء التغذية عند الشباب .

ولم تتحدث السيدة سهير عن الزبالة التليفزيونية والزبالة السينمائية من أفلام الرعب والجنس وروايات العهر التى وصلت إلى أعلامنا وقنواتنا الفضائية والتى يتتلمذ عليها البعض من شركاتنا السينمائية والكثير من منتجينا وممثلينا .

وحينما نقرأ الآن عن ضرب العراق وعزم أمريكا الوشيك على إرسال طائراتها وحاملات قنابلها لإسقاط هدايا الرعب والموت على الشعب العراقى الجائع المقهور .. فإننا نعلم الآن أن الضرب مستمر من قديم .. ومن قبل ذلك كانت هناك حرب الخليج التى صنعتها أمريكا صنعا على أيديها وأوعزت بها إلى صدام حسين ليغزو الكويت لتستدرج بعد ذلك العرب إلى المذبحة التى أضاعوا فيها البترول وفتحوا الأبواب للقواعد الأمريكية لتدخل على الرحب والسعة ولتفقد البلاد العربية سيطرتها على أسعار نفطها إلى الأبد.

ومن قبل ذلك كانت هناك حرب العراق وإيران .. والأسلحة للاثنين كانت تأتى من أمريكا .

ومن قبل ذلك كان زرع إسرائيل فى المنطقة العربية وإثارة سلسلة من الحروب لا تنتهى .

والغزو مستمر على جميع الأصعدة .

والإدارة الأمريكية الآن جميعها فى قبضة اليهود والصهاينة وعملاء إسرائيل .

ومن وراء الإدارة الظاهرة هناك جماعات الضغط « واللوبى » وكلهم من اليهود والصهاينة .

والكلام عن الغزو يجر بعضه .

ومنذ متى لم يكن هناك غزو ؟!!

ولكنه الآن غزو جهير وداعر وسافر ومعلن ووقح .

والصهيونية تحاول الآن تشكيل العالم على وفاق مطامعها .

وصدق القرآن حينما خاطب إسرائيل ذلك الخطاب الجامع المانع فى سورة الإسراء قائلا :

﴿ لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ﴾ .

وإذا قسنا كلمة « العلو الكبير » على كبر المتكلم .. فإن المعنى يتضمن فى باطنه كارثة .

ولولا أن رحمة الرحيم عادت فشملتنا فقال سبحانه لإسرائيل فى آخر الآيات :

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴾ .

فجعل من الخاتمةدمارا شاملا عليهم وعلى ما بنوا وعمروا .. لولا ذلك لكانت الآية نذير نهايتنا .

وحسبنا حسن الختام فإننا لا نملك الآن شيئا سوى التمنى .

ولكن يظل فى الآية معنى آخر باطن .. فكيف يدخل المسلمون القدس ويجعلون عاليها سافلها .. وأين تكون أمريكا حينذاك .. وأين يكون أسطولها السادس وبوارجها وغواصاتها ومقاتلاتها التى تجوب الفضاء .. وأمريكا هى حامية إسرائيل والحارس الساهر على سلامتها منذ ولدت .

والجواب واحد من احتمالين .. أما أن أمريكا ستتحول إلى الموقف المضاد المناهض وستنقلب على إسرائيل وتعاون فى القضاء عليها .. أو الاحتمال الآخر .. أن أمريكا لن يكون لها وجود.. وتكون قد غرقت بكامل ولاياتها فى كارثة فلكية .

ولا يعلم الغيب إلا الله .

وتبقى ايات القرآن التى تشير إلى مستقبل إسرائيل وما قضى به ربنا عليها .. من آيات الإعجاز ومن مغاليق القدر المطلسم .. وهى من الآيات التى يذكرها المفسرون فى استحياء ويقولون .. تفسيرها حدوثها .. ويفضلون هذا على التخبط فى التأويل .

وتأتى فى الأناجيل وفى رؤى يوحنا اللاهوتى وفى التوراة نذر بنهايات وكوارث مشئومة مشابهة .. ويعلم الأحبار العجائز بهذه الخاتمة المشئومة لدولتهم .. وفى إسرائيل حزب دينى من أحزاب الأقلية يرفض فكرة إسرائيل الكبرى ويرى أنها لو حدثت تكون فيها نهاية إسرائيل .

ولكن الاندفاع التاريخى يمضى فى جنونه ويرفض ما يتهامس به هؤلاء وهؤلاء .

وكمثل الحجر الهائل الساقط من الجبل سوف تهوى إسرائيل إلى نهايتها دون أن تستمع إلى عظة أو تصغى إلى حكمة .. فهكذا يقول ربنا فى كتابه :

﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ﴾ .

إن ربنا قضى قضاءه وانتهى الأمر .. ولا مرد لقضائه ولا معقب لكلمته .

ويبقى أن نحاول نحن العرب أصحاب القضية أن يكون لنا

إسهام محمود ودور مشرف فى ما يجرى وألا نكون مجرد متفرجين نمضغ أمجادا قديمة عفى عليها الدهر أو نكون خوارج جددا وأحزابا رافضة وطوائف عدمية تتهم هذا وذاك بالكفر وتطعن فى ذمة كل مسلم .

وشيطان اليوم اسمه التطرف وبضاعته اليوم يدفع فيها ، بالدولار وتدخل فى المزاد دول تبحث عن من يشعل لها النار بأى ثمن وتشترى الفتن والتفجيرات من الذين يفجرونها بأسعار فلكية.

والإرهاب باسم الإسلام أصبح الان له مراكز فى جنيف ولندن وواشنطن .

وإسرائيل هى أكبر مساهم فى لعبة خلط الأوراق الجارية .

والموساد والـ C. I. A تديران هذه الحرب الخلفية .. وهى لا تنفصل عن الحرب الظاهرة ولا عن المفاوضات الوهمية والسلام الزائف ومدريد وأوسلو واحد وأوسلو اثنين وكوبنهاجن إلى آخر مسلسل التمويه والدوخة التى يدوخ معها قارىء الصحيفة العادى فى دوامة يومية ولا يعرف رأسه من رجليه .

ولكن القضية لها رأس .. ورأسها هى القدس .. ولها أرجل .. وأرجلها تتسابق إلى احتلال كل شبر ممكن من الأرض وكل قطرة ممكنة من المياه .. وكل بضعة من التربة الزراعية الخصبة .

وهذا يعود بنا إلى وعد إسرائيل وسورة الإسراء .

ودائما كان قارىء القرآن يدهش لهذه النقلة الفجائية للآيات التى استهلت السورة بهذا التسبيح الرحمانى الجميل .. **﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع**

البصير﴾ .. وفجأة تنقله الآيات فى قفزة واحدة إلى سيدنا موسى .. **﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل﴾** .

وكان القارىء يدهش لهذه النقلة الفجائية ويتساءل عن المغزى والمناسبة بين الإسراء بالنبى محمد عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى وصلاته الجامعة بالأنبياء هناك .. وبين موسى وبنى إسرائيل .. وفى الواقع أن هذه النقلة هى الإعجاز القرآنى بعينه .. وأن هذه النقلة كانت مقصودة .. وكان المراد بها لفت النظر إلى أن الإسلام سيكون له دور هناك.. وأن صلاة النبى إماما بكل الأنبياء فى الرؤيا المحمدية إشارة إلى الدور القيادى للإسلام فى هذه المرحلة الحرجة من التاريخ .. ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن الإفسادتين وإلى العلو الكبير وتأتى إلى النهاية بدخول المسلمين إلى القدس منتصرين وتدميرهم لكل ما أنشأت إسرائيل وكل ما عمرت .. فى سياق متصل ختامه .. «وإن عدتم عدنا» . أى لا أمل ولا قيام لأى إسرائيل كبرى ونحن لكم بالمرصاد .

وسورة الإسراء هى التحدى القائم والمستمر لكل ما تخطط له إسرائيل ولكل ما تحيكه من مؤامرات وفتن وحروب وتأكيد بأن كل هذا سوف يذهب هباء وبأن إسرائيل لن تصل إلى شىء .. ولا خلاص لإسرائيل من شؤم نهايتها إلا بالخلاص من القرآن كله وهذا أمر مستحيل فالقرآن هو كلام الله المحفوظ إلى آخر الدهر .

وسوف تؤكد الأيام مصداقية هذه النبوءة وسوف تضيف إلى القرآن دليلا جديدا من أدلة إعجازه التى تحدى بها ربنا الإنس

والجن وكل من يتـصـور أنه يسـتطيع أن يقلد هذه الآيات أو يأتى بمثلها .

وإن أتى بمثلهـا فكيف يأتى بالمسـتـقبل وكيف يفض مـغاليق الأقدار وكيف يقلب مقدمات الهزيمة نصرا لم تظهر له شواهد ولم تبد له باديات .. وكيف .. وكيف .

إنه الله الحق مالك الملك الذى أحاط بكل شىء علما والذى يملك الماضى والحاضر والمستقـبل وكل ما كان وما يكون وما سوف يكون وحينما يتكلم فكلامه قدر .

وصدق الله العظيم :

﴿ إنه كان وعده مأتيا ﴾ (مريم : الآية ٦١)

ماذا وراء
بوابة الموت

١٨

البعث

«الوبر»

اللغة العربية تتراجع ومعها أسماء الدكاكين وأسماء المأكولات لتزحف علينا غزوات أعجمية تقتحم علينا حياتنا وتصبغها بالصبغة الأمريكية.. فالقرى السياحية الجديدة تملأ الصحف بأسماء.. الدريم لاند والكورال بيتش وبيفرلى هيلز وجولدن بيتش.

وتدخل هذه الرطانة قاموسنا اللغوى وتحتله.. ونجد أنفسنا نقول.. دادى.. وأونكل.. وتانت.. وبودى جارد.. وكتالوج.. وباسبور.. وستريو.. وسوبر ماركت.. وبون جور.. وباى باى.. وبارتى.. وهاى.. وأوكيه.. وهالو.. وبرافو.. وسوفاج.. وأم بوسيبل.

ويجرى التشويه والعبث فى الألفاظ العربية فنسمع كلمات أمثال «كماننا» يغنيها الجيل الجديد الضائع.. وننسى أننا نفقد بهذا أرضنا التى نقف عليها ونفقد عروبتنا ونفقد قوميتنا ونفقد قيمنا ونفقد خصائصنا.. فلا عجب أن تختفى الشهامة العربية بعد ذلك من الشارع.. وأن يختفى الشرف بمفهومه العربى من البيت وأن تكون العروسة السوبر فى نظر العريس هى مسخ فرانكو أراب.. فهذا هو القالب الجديد الذى يبحث عنه والذى انطبع فى ذهنه من رؤية المسلسلات الأمريكية والسينما الفرنسية.. وهذا

هو معنى التقدم كما أخذه من التليفزيون ومن أفلام السينما ومن كبار المخرجين من حملة الأوسكار ونجوم الإغراء من صناع الموضات والأهواء.

ونظرة سريعة إلى أسماء المحلات في ميدان شعبى مثل ميدان السيدة زينب لا تجد فيه اسما عربيا واحدا وربما عثرت على اسم يتيم بين كل عشرة محلات.. وهذا هو الوصف الدقيق لحالنا.. إننا نتحول بالتدريج إلى أيتام بلا أب وبلا أم.. ونصبح غرباء عن أرضنا وفي بلدنا ونفقد حسبنا ونسبنا وأصلنا.

والمسئولية تقع على كل واحد فينا ابتداء من وزير التربية والتعليم ونزولا إلى حلاق القرية.. والاستعمار الفرنسى ومن بعده الانجليزى ومن بعده الأمريكى يحمل معظم الوزر.. ولكن هذا المسلسل الغاشم من الغزو الأجنبى لا يكفى لإبراء ذمتنا.. فمصر بموقعها الفاتن والعبقرى كانت ضحية لموجات من الغزو بلا عدد ولكن كان الملاحظ دائما أنها تطبع الغزاة بطابعها أكثر مما تنطبع هى بهم.. وأكثر من دخلوا مصر تمصروا أكثر مما تفرنجنا نحن وهرولنا وراءهم.

والتخلف سبب آخر فنحن لم نعد ننتج المعرفة ولم نعد نبدع فى العلوم والمخترعات وإنما أصبحنا مستهلكين لما ينتج ولما يبدع غيرنا وناقلين لما يخترع الغرب.. فدخلت علينا المخترعات الجديدة بأسمائها.. الراديو والتليفزيون والتليفون والميكروفون والموتور والفريجيدير والأنسر ماشين والفيديو والكاميرا والكومبيوتر والإنتركوم والانترنيت.

نحن صناع الأهرامات لم نعد نصنع ساندوتش هامبورجر ولم نعد نخترع كنتاكى.

ولولا القرآن ولولا الإسـلام لانتهـينا.. فالمسـجد كـان حصنا حصينا لم تستطـع هذه الغزوة المفترسة أن تقتـحمه.. ولم يظهر مـسجـد اسمـه مسـجد الدريـم لاند ولا مسـجد الكورال بيـتش ولا مسجد الباليه رويال.. ولا مسجد التانجو.. وإنما هناك مسجد الرحمة ومسجد المغفرة ومسجد قباء ومسجد النور.

ولم يدخل علينا الإسـلام غـازيا.. لم يدخل علينا ليـسلبنا كمـا يظن البـعض.. بل دخل ليـعيـد إلينا مـا فُقـد منا.. توحـيد نبـينا المصرى إدريس.. الذى كان يشع على العالم من جامعة أون (عين شمس حاليا).

وكانت جامعة أون بمثابة أمـريكا فى إشعاعها الثقافى والدينى والعلمى فى ذلك الزمن القديم.. ونقرأ أن أفلاطون جاء من اليونان إلى مـصر ليـتلقى العلم فى جـامـعة أون.. وليـقـرأ ما كـتب فى مخطوطاتها وبقى فى مصر سنوات يدرس ويتعلم.

وما فعله أفلاطون فعله كل علمـاء وفلاسفة هذا العصر.. كلهم جاءوا إلى مـصر ليتـعلموا.. وهذا الكلام تاريخ وحقـائق.. وكانت «صـحف إدريس» ضمن مـا تحـتويه مـخطوطات هذه الجـامعـة المصرية القديمـة.. وقد قرأها موسى ودرس ما فيـها حينما تبناه الفرعون.

ومـا تبقى من «صـحف إدريس» هو مـا يعـرف اليوم بكتـاب المـوتى الذى عـثر عـلى بعض بردياته فى الأهرامـات.. وهو من أجمل ما قيل فى التوحيد من تسابيح.

نحن إذن بلاد علم وفلسفة وتاريخ.. وحالة «الهـيافة» الشائعة حاليا فى ثقـافتنا وفى تعليمنا وهذا الانحدار فى لغتنا والسـوقية فى أخـلاقنا والسطحـية فى تفـكيرنا هى ظواهـر غازية وليـست

أصيلة.. وهى بقع وقذارات من العالم الغربى أصابتنا أثناء تسكعنا فى أزقة نيويورك.

والقرآن العظيم فى عطائه الإلهى وآياته التى تمكنت من شغاف قلوبنا هى التى ستحفظ لغتنا العربية الجميلة وهى التى ستحفظ قلوبنا من التردى وهى التى ستروى بقية الأصالة فينا.. إنها الحبل الممدود من رحمة الله لإنقاذنا.

ولهذا تحاول الصهيونية من خلال أمريكا ومعوناتها وتوصياتها وضغوطها وعملائها تدمير النظام التعليمى وذلك بتخويفنا من الدين وبتشويه الإسلام ودمغه بالإرهاب.

والتخطيط الآن على اتساع العالم هو صناعة وتمويل إرهاب إسلامى مأجور واستخدامه للتنفير والتحذير من الإسلام تمهيدا لشطب فقه الجهاد من العقل المسلم واعتباره إجراما وإرهابا وفقه الجهاد هو بعض ما قام المشرفون فى الأزهر بشطبه واختصاره من المقررات الجديدة على الطلبة للأسف الشديد.

إنها معركة حقيقية ومستمرة على جميع الأصعدة.. على المستوى الدينى واللغوى والاجتماعى والعروبى والسياسى والعسكرى والوطنى.

ولكنها لن تنجح.. لأن القرآن الشامخ فى لغته الرفيع فى معانيه التقدمى فى تعاليمه السمح فى شرائعه الجميل فى آياته الموسيقى فى إيقاعاته.. سوف يقف سدا مانعا يتحطم عليه مكرهم.

فعندهم المبانى.. وعندنا المعانى

وعندهم علوم الدمار.. (وكان قوم عاد ينحتون الجبال.. وكان عندهم ما هو أبهى من نيويورك.. ﴿إرم ذات العماد.. التى لم

يخلق مثلها فى البلاد﴾ هكذا يقول عنها رب العـالمين.. إنها لم يخلق مثلها فى البلاد) فذهبـوا وذهبت عمارتهم ولم يبق لها أثر.. وبقيت أهراماتنا تدل علينا.

تلك عاد التى أسـماها القرآن **﴿عادا الأولى﴾**.. لماذا وصـفها بأنها الأولى؟؟!

لابد أننا الآن فى زمان عاد الثانية (أمريكا)

وأنه سيجرى على الثانية ماجرى على الأولى.

ويقول الساخرون منهم:

أنتم تنتـظرون ربكم أن يفـعل لكم كل شىء.. فـهـو يلهـمكم ويعلمكم وينصركم ويداويكم ويشفـيكم ويغنيكم.. وقد جعلتم من أنفسكم عالة.. بل أنتم قوم مهزومون.

ونقـول لهم.. كل الخلق عالة علـى الله من حيث يعلمـون ومن حيث لا يعلمون.

ولا نرى غرابة فى هذا فنحن نشـعر يقينا أننا نحـيا بالله وأننا نرى به ونسمع به ونتنفس بـه.. وكان نبينا يقول لربه.. بك أحـيا وبك أصول وبك أجول ولا فخر لى.. إنها حقيقة نؤمن بها.

فلا علم لنا إلا من مدده

وهو الذى علمكم فأطغاكم علمكم وأنساكم ذكره.

وما الـنصر والهـزيمة إلا تداول النهـار والليل.. والأيام دول.. وما من جبار لم تنتكس رايته.

وكم من منتـصر فى الظاهر وهو مهـزوم القلب أمام شـهواته وغرائزه.. واقـرأوا حكايات مونيكا وكلـينتون.. ولماذا اسـتنكرتم أفعال الرجل وهو يطبق أفكاركم ويمشى على ناموسكم.

أم أنهـا صحـوة الفطرة أصـابتكم فلم تـملكوا إلا أن تقـبحـوا القبيح.

أم أنها لبسة المكر وأساليب التآمر ومكياج الأخلاق تضعونه على وجوهكم فى الليل وتغسلونه بالنهار.

احترنا فيكم

ويقولون.. نحن لم نقبح فيه الفعل.. بل قبحنا فيه الكذب.

– ولما تاب وأناب واستغفر ماذا فعلتم؟

– إنه لم يتب ولا استغفر بل استرسل فى الكذب.. إنه ممثل عظيم.

– وهل مدينتكم بأسرها إلا أزياء ومسوح وماكياج وأكاذيب وأكبرها كذبا تمثال الحرية الواقف على مدخل أمريكا.. حرية من وأنتم تستعبدون أحرار العالم وتأكلون أموالهم وتنهبون ديارهم وتحتلون أرضهم.. وهل قامت أمريكا إلا على أنقاض الهنود الحمر الذين أبيدوا عن آخرهم.

وقنابلكم على مصنع الشفاء.. التى حرمت الشعب السودانى من الدواء.. أى حرية صنعت.

ويستمر الكلام إلى الأبد.. ويستمر الجدل فى كل بيت.. وتستمر مكابرة المكابرين.

وإنما أراد الله أن يمتحن الكل وأن يختبر القلوب والنفوس حتى نخاع العظام.

وهو هو وحده الذى يعطى الحرية للجميع ليفعل كل امرىء ما يحلو له حتى لا يعود لأحد منهم عذر وحتى لا تبقى له ذريعة ولا تعود له حجة.. ثم يهدم ربنا الدنيا ويأتى بعاليها سافلها.

ثم يأتى بالكل أمامه فردا فردا

ثم يبدأ الكلام المفيد

وساعتها.. حينما تتعرى النفوس عن أحقادها.. لا يعود هناك مخرج.

فريق فى الجنة وفريق فى السعير

ولقد كانوا جحيم هذه الدنيا وسعيرها بالفعل حتى وهم فيها.

وكانت النار تنقدح فى نظراتهم واللهيب يشتعل فى أحقادهم.

ولقد صدق الشيخ الأكبر ابن عربى حينما تصور ذلك الحوار الخيالى فى قاع الجحيم بين هؤلاء الشياطين وبين ربهم.. وهم فى ثورتهم يجأرون.. كيف تحكم علينا بهذا يارب.

فيقول لهم ربهم..

ما حكمنا عليكم ولكن هكذا كنتم

فهم أهل الجحيم منذ البداية وهم أهل النار الذين هم أهلها منذ أن وجدوا.. ولكن الهيكل الترابى والبدن الطينى كان يخفى حقائقهم..

وقد تنكروا فى هذه الأزياء واستتروا فى هذه المناصب وتخفوا فى هذه الشخوص.. حتى داهمهم الموت فخلع عنهم هذا البهرج وأسقط عنهم هذا الثوب الكاذب الزائف.

فمتى نُسقط عن أنفسنا هذا الزيف بأيدينا قبل أن يفاجئنا الموت فيعرينا هذه التعرية المخجلة.

متى نعود إلى مصريتنا وإلى عروبتنا وإلى إسلامنا وإلى لغتنا وإلى أصلنا.

متى نلتقط قارب العبور فى محيط العولمة الخادع ونكتشف طريقنا إلى نفوسنا وإلى حقائقنا وإلى تميزنا وانفرادنا.. وخصوصيتنا.

إن العودة إلى النفس هى بداية النجاة

ومعرفة النفس هى أم المعارف وبداية الطريق لمعرفة الله.

والبنت «السوبر» لن تصلح لتعمر بيتك

إنهـا قد تـصلح كقطعـة ديكور.. أو كـورق ملون للحـائط.. أو كدمية من السوليفان.. أو فيلم لفرجة ليلة.

ولكنهـا لن تصلح لرحلة عمـر.. لأنهـا فقدت نـفسـها.. فـقدت خصوصيتها.

وكل نسخة من نفوسنا خلقها الله كبصمة الأصبع خاصة جدا وشديدة الخـصوصية وغـير قابلة للتكرار وغـير قابلة للعـولمة.. فهى ذات ليس لهـا مثيل فـى سرها وخصـوصيتـها.. وهى تلمع وتتألق كـالجوهرة كلما حـافظت على هذه الخصوصـية ولم تذب ولم تتعولم ولم تصبح مشاعا.

والنفوس العظيـمة هى التى استعـصت على الذوبان وحافظت على البصمة الإلهية الخاصة فيها.

وما أكثر ما تروج صحافتنا من ضلالات.

وأولى تلك الضـلالات هى «العـولمة» وهى كلمـة مـهذبة جـدا للتـبعيـة والأمركـة وفقـدان الهوية والخـصوصيـة والذوبان فى الهلامية العالمية.

وليس أجمل فى الدنيا من قول لا إله إلا الله.

فإن الله يقول لك لحـظتها.. ولا أحد مثلك.. فـأنت أيضا نسيج وحدك.. وهكذا خلقتك.

نعم.. فلا أحـد مثل أحـد.. وكل واحد منا فيـه «أحدية» تمـيزه تشريفا وتكريما من الأحد الذى خلقه

ولا تحدث الـمثليـة إلا لمن فقـدوا نفوسـهـم وفقدوا وجـوههم وضلوا عن خصوصيتهم.

فلنعد إلى أول صفـحة من كتاب المـوتى ونتلو أول عبارة من صـحف النبى إدريس.. إنه الله الواحـد الأحد جل جـلاله لا إله إلا

هو تعالى على الشبيه والمثيل.. ليس كمثله شيء.

هذه الترنيمة السماوية.. التى تتردد منذ آلاف السنين.. هى مصر.

وما دخل الإسلام مصر إلا ليذكرنا بها

ولغتنا العربية هى حصننا ومحفظة تاريخنا وحروف قرآننا.

وهى وجهنا وملامحنا والتفريط فيها تفريط ملامحنا وسحنتنا ونسبنا وهويتنا.

والقرارات التى نزلت بدرجات اللغة العربية فى المجموع إلى مستوى درجات الانجليزية.. كانت جريمة بكل المقاييس.. أن ننزل بلغتنا إلى مستوى اللغة الثانية بارادتنا!!

وإصلاح هذا الأمر.. والنهوض بتعليم اللغة العربية واجب فى رقبة الجالس على كرسى وزارة التربية والتعليم.. فما يصلنا من خطابات بلهاء مليئة الأخطاء يدل على تدهور مستوى هذه اللغة إلى درجة تنذر بالخطر.. ومذيعو النشرات فى التليفزيون يتهجى بعضهم الكلمات.

واللغة التى نتبادلها فى غفلة وخفة هى صنعة إلهية.. والله هو الذى علمها بذاته لآدم.. فهو الذى علم آدم الأسماء كلها.

ومعلم العربية هو خليفة الله فى هذا الشرف الرفيع.. ومن يحلم بمثل هذا الشرف؟!

وندق جرس الإنذار

الفهـــرس

الصفحة

رقم الإيداع
٩٩/٢٠٠٠

الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 - 08 - 0802 - 4